



جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز

إعداد

د . عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السحيباني

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي

جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز

إعداد

د. عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السحيباني

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

ح

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٩هـ—

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السحبياني، عبد العزيز بن محمد بن عبد الله

جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز / عبد العزيز بن

محمد بن عبد الله السحبياني. الرياض، ١٤٢٩هـ—

١٧١ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٩-٨٠٧-٠٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١- القرآن — إعجاز ٢- القرآن — الفاظ أ. العنوان

ديوي ٢٢٥ ٣٣٠٤ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ٣٣٠٤ / ١٤٢٩

ردمك: ٩-٨٠٧-٠٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطباعة والنشر محفوظة للجامعة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

تقديم عميد البحث العلمي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله، وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد:-
فقد نصت المادة الأولى في نظام مجلس التعليم العالي والجامعات في المملكة العربية السعودية على أن الجامعات السعودية مؤسسات علمية وثقافية، تعمل على هدي الشريعة الإسلامية وتقوم بتنفيذ السياسة التعليمية بتوفير التعليم الجامعي والدراسات العليا، والنهوض بالبحث العلمي، والقيام بالتأليف، والترجمة، والنشر وخدمة المجتمع في نطاق اختصاصها.

وعمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في سبيل تحقيق أهدافها المنوطة بها تعنى بنشر البحوث العلمية، والرسائل الجامعية، وترجمة ما ترى فيه النفع إلى العديد من اللغات العالمية، وتستكتب في السلاسل الثقافية التي تصدرها العديد من المتخصصين؛ لتقدم المتميز من الأعمال العلمية.

وها هي تضع بين يدي القراء هذا البحث العلمي الذي وافق المجلس العلمي في الجامعة على نشره بقراره ذي الرقم (٢٦٥ - ١٤٢٨ هـ / ١٤٢٩ هـ في جلسته (الخامسة عشرة) المعقودة في ٢٠ / ٤ / ١٤٢٩ هـ، والموسوم بـ (جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز) الذي أعده الدكتور: عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السحيباني الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين في الرياض.
نسأل الله - عز وجل - أن ينفع بهذا البحث، إنه سميع مجيب.

أ. د. فهد بن عبد العزيز العسكر

عميد البحث العلمي

المقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾^(١). استمعته نفر من الجن، فرجعوا مبهورين، وهم يقولون: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾^(٢) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ. وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾^(٣).

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. أما بعد؛ فإن مدارس القرآن الكريم، والبحث في أسرارهِ، وعجائب آياته؛ هي من أنفع ساعات العمر، وأكثرها متعة.

لاسيما موضوعات إعجاز القرآن؛ فإنها تقود الباحث فيها إلى فصول من دلائل عظمة هذا القرآن وجلاله، تقف النفس المؤمنة منها خاشعة، مستسلمة لعظمة منزل هذا الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أسباب اختيار الموضوع:

إن أكبر سبب حملني على اختيار هذا الموضوع يعود إلى بركة تدبر كتاب الله عز وجل.

فكنت أحيانا أجاهد النفس في تدبر آيات القرآن، فتستوقفني بعض الألفاظ القرآنية؛ ببلاغتها وفصاحتها، وما تضمنته من المعاني الكثيرة. وأحيانا أقف عند آية جامعة لكثير من المعاني والصور البلاغية.

وهكذا يوما بعد يوم نما في نفسي الحرص على تتبع هذه الألفاظ والآيات، والعناية بجمعها؛ فعمدت العزم على بحث هذا الموضوع بحثا علميا مؤصلا؛ محاولا الكشف عن أسرار تلك الكلمات والجمل والآيات وعلاقتها بإعجاز القرآن.

(١) سورة الكهف، آية: ١.

(٢) سورة الجن، آية: ١-٢.

فكان من فضل الله تعالى علي أن أعاني ووفقني إلى إخراج هذا البحث،
الذي سميته: جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز.

الدراسات السابقة:

لم أقف حسب علمي على بحث مشابه لهذا الموضوع، أو قريب منه،
وهذا مما زادني حرصاً على البحث فيه، والسعي في إنجازه.

خطة البحث:

وتتألف من تمهيد وفصلين وخاتمة، وهي على النحو التالي:

التمهيد: وفيه مبحثان

المبحث الأول: معجزات الأنبياء والقرآن.

المبحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن.

الفصل الأول: جوامع كلم القرآن وصلتها بالإعجاز اللغوي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الكلمة الجامعة.

المبحث الثاني: أقسام الكلمة الجامعة في القرآن.

المبحث الثالث: إعجاز القرآن اللغوي وجوامع الكلم.

الفصل الثاني: شواهد الإعجاز في جوامع كلم القرآن

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شواهد الإعجاز في السورة الجامعة.

المبحث الثاني: شواهد الإعجاز في الآية الجامعة.

المبحث الثالث: شواهد الإعجاز في الجملة الجامعة.

المبحث الرابع: شواهد الإعجاز في اللفظ الجامع.

وفيه أربعة أنواع:

- شواهد الإعجاز في المصطلح القرآني الجامع.
 - شواهد الإعجاز في اللفظ المشترك المحمول على معانيه.
 - شواهد الإعجاز في اللفظ المستعمل في حقيقته ومجازه.
 - شواهد الإعجاز في اللفظ الذي ترادفت في بيانه أقوال المفسرين.
- الخاتمة

فهرس المصادر والمراجع

منهج البحث

التزمت في هذا البحث القواعد المرعية في كتابة البحوث العلمية، من تأصيل، وتخرّيج، وتوثيق، وترقيم، وسلامة لغة، ونحوها.

وسلكت في هذا البحث منهجا استقرائيا بالدرجة الأولى، يعتمد على النظر في كتاب الله، وتدبر آياته، واستكشاف معانيها الدالة على موضوع البحث. مع العناية الشديدة بالإفادة من أقوال المفسرين، وممن كتبوا في موضوع الإعجاز، لاسيما من تناولوا جوامع الكلم؛ سعيا في إخراج عمل يجمع بين الجدة والأصالة. والله ولي التوفيق.

وفي الختام أحمد الله تعالى حمد كثيرا طيبا مباركا فيه على نعمه التي لا تحصى، وأشكره شكرا كثيرا لا ينتهي على ما من به علي، فأعاني على إنجاز هذا البحث، وما فتح لي فيه، وأسأله جل وعلا أن يغفر لي زللي وخطأي، وكل ذلك عندي.

كما أشكر كل من أعاني على إتمام هذا البحث، وتسديده، من قريب أو بعيد، والله يتولانا جميعا بواسع رحمته، ويوفقنا إلى أسباب مرضاته، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معجزات الأنبياء والقرآن

المبحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن

المبحث الأول معجزات الأنبياء والقرآن

المعجزة: واحدة المعجزات، مشتقة من العجز، وهو ضد القدرة، والعجز: اسم للقصور عن فعل الشيء، مأخوذ من عَجَزَ الإنسان ومُؤَخَّرَه، فأصله التأخر عن تحصيل الشيء عند العجز عنه ^(١).

ومعجزات الأنبياء هي دليل صدقهم، صلوات الله وسلامه عليهم، وسميت معجزة؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

وشروطها: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأن تكون خارقة للعادة، وأن تقع على وفق دعوى المتحدي بها، المستشهد بكونها معجزة له، وألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة ^(٢).

وكان كل نبي من الأنبياء يبعث إلى قومه خاصة، في زمان معين ومكان محدد، وبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى الناس كافة، لكل زمان ومكان. وقد أعطي الأنبياء من الآيات والمعجزات ما يكون حجة لهم وبرهاناً على صدقهم وحاملاً على الإيمان بما جاءوا به.

ويؤيد هذا المعنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَا مِنْ أَنْبِيَاءٍ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ^(٣).

والمعنى أن كل نبي أعطي معجزة أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها. وقوله: ((عَلَيْهِ)). بمعنى اللام أو الباء الموحدة، والنكتة في

(١) انظر: المفردات للراغب ص ٣٣٤، وتاج العروس للزبيدي ٢٠٠/١٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٦٩/١.

(٣) صحيح البخاري ٤٨٨/٨ - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب قول النبي ﷺ: بعثت مجوامع

الكلم - حديث رقم ٧٢٧٤.

التعبير بها؛ تضمنها معنى الغلبة، أي يؤمن بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه، لكن قد يجحد، فيعاند، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

وقوله: ((مَا مِثْلُهُ)) كقوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾^(٢)، أي على صفته من البيان وعلو الطبقة في البلاغة. وقوله: ((وَأَمَّا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ)) أي أن معجزتي التي تحدت بها الثقلين هي القرآن؛ لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يوت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد أن القرآن هو المعجزة العظمى، الظاهرة، التي اختص بها دون غيره؛ فلهذا قال: ((فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا))^(٣).

وكان كل نبي قد أعطي معجزة خاصة به، تقع مناسبة لحال قومه، فلما كان السحر فاشيا عند فرعون؛ جاءه موسى عليه السلام بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا، وكذلك عيسى عليه السلام كانت معجزته إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص؛ لأن الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه، كما أن العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ كانوا في الغاية من البلاغة والفصاحة؛ فجاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بمثله أو بسور أو بسورة مثله، فلم يقدرُوا على ذلك^(٤).

(١) سورة النمل، آية: ١٤.

(٢) سورة يونس، آية: ٣٨.

(٣) انظر: شرح هذا الحديث في شرح النووي على صحيح مسلم ١٨٨/٢، وفتح الباري ٦/٩، وعمدة

القاري للعيني ١٣/٢٠.

(٤) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٥٢/١.

ودل هذا الحديث على أن هذا القرآن الذي أوتيّه لا يتطرق إليه تخييل
بسحر وشبهة، بخلاف معجزة غيره، فإنه قد يخيل الساحر بشيء مما يقارب
صورتها، كما خيلت السحرة في صورة عصا موسى عليه السلام.
والحديث يشير أيضا إلى أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم،
ولم يشاهدها إلا من حضرها في زمنهم، وأما القرآن - معجزة نبينا ﷺ - فباقية،
مستمرة إلى يوم القيامة، مع خرق العادة في أسلوبه وبلاغته، وإخباره بالمغيبات،
وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله، مجتمعين، أو متفرقين في جميع
الأعصار، مع اعتنائهم بمعارضته، فلم يقدرُوا وهم أفصح القرون^(١).

(١) انظر: دلالات هذا الحديث في شرح النووي على صحيح مسلم ١٨٨/٢، وفتح الباري ٦/٩، وعمدة
القاري للعبيني ١٣/٢٠.

المبحث الثاني وجوه إعجاز القرآن

القرآن العظيم هو منبع العلوم ومنه تفجر أنهارها، أودع الله فيه شتى الفنون، وكل ذي فن منه يغرف ويستمد، وعليه يبني قواعد علمه ويعتمد. وإعجاز القرآن من أعظم علوم الكتاب العزيز وأسمائها، وهذا ظاهر من عنوانه. وهو مركب إضافي من باب إضافة المصدر وهو (إعجاز) إلى فاعله، وهو (القرآن). والإعجاز يعني عدم الاقتدار، فالقرآن أعجز الثقلين، أي أن قدراتهم مهما اجتمعت وتظاهرت فهي دون معارضته.

وإذا كان الحديث عموماً عن القرآن وعلومه كثيراً، ومتنوعاً، ومشوقاً، وله مذاق وحلاوة؛ فإن الحديث عن إعجاز القرآن خاصة لهو أروع وأمتع؛ فهو يبرهن على أجل أوصاف القرآن وأشرفها؛ بأنه من عند الله، وأنه حق لا ريب فيه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١). إن إعجاز القرآن ليقيم البراهين الدامغة على أنه من عند الله عز وجل، من وجوه شتى، يمكن إجمالها في خمسة أقسام^(٢):

القسم الأول: الإعجاز اللغوي:

وهو المراد عند المتقدمين، لاسيما من ألفوا في إعجاز القرآن، كالواسطي، والباقلاني، والجرجاني. والإعجاز في هذا القسم يتعلق بفصاحته وبلاغته التي امتاز بها عن كلام المخلوقين، ثم بنظمه العجيب وأسلوبه الغريب، الذي حير أهل البلاغة والبيان، وهالهم أمره؛ فاستسلموا لعظمة كلماته وسحر بيانه. وهذا القسم هو المقصود في هذا البحث. وسيأتي له مزيد بيان في مبحث قادم.

(١) سورة فصلت، آية: ٤٢ .

(٢) انظر:ها في الشفاء للقاضي عياض ٣٥٨/١، والإتقان للسيوطي ٣٢٢/٢، ومناهل العرفان للزرقاني

٢٣٩/٢، ومباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ١٠٧.

القسم الثاني: الإعجاز التشريعي:

والمراد ما جاء به القرآن من هدى وإرشاد لكل ما يحتاجه الإنسان في جميع الميادين والأحوال، وقد اختصر القرآن هذا المعنى بقوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْنَمٌ﴾^(١)، وهو ما أشار إليه خبر النفر من الجن الذين جاءوا يستمعون القرآن فهاهم ما سمعوا من روعة هذا القرآن ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾^(٢) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾^(٣) وهذا الهدى والرشد متحقق أولا في الجانب العقدي، من جهة ما اشتمل عليه القرآن من التعريف بالباري جل جلاله، وذكر أسمائه وصفاته، ودعوة الخلق إلى عبادته وتوحيده، وإقامة البراهين القاطعة، والحجج الواضحة، والرد على أصناف الكفار، وذلك كله يعلم بالضرورة، أنه لا يصل إليه بشر من تلقاء نفسه، بل بوحى من العليم الخبير.

ولا يشك عاقل في صدق من عرف الله تلك المعرفة، وعظم جلاله ذلك التعظيم، ودعا عباد الله إلى صراطه المستقيم. وهو متحقق ثانيا في ما شرع الله فيه من الحكم والأحكام، وبين من الحلال والحرام، وهدى إليه من مصالح الدنيا والآخرة، وأرشد إليه من مكارم الأخلاق.

القسم الثالث: الإعجاز الخبري:

والمراد أن أخبار القرآن دالة على الإعجاز، وهي نوعان:
الأول: ما أخبر فيه من الغيوب المستقبلية فوقعت على حسب ما قال.
كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾^(٤) أي الاستيلاء على غير أبي سفيان أو الانتصار في غزوة بدر، فكانت الثانية.

(١) سورة الإسراء، آية: ٩ .

(٢) سورة الجن، آية: ٢-١ .

(٣) سورة الأنفال، آية: ٧ .

ومنها - وهو الأجدر بالذكر هنا - قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾^(١)

فقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ تأكيد أنهم لا يأتون بذلك في المستقبل، فما أتى أحد منهم، ولا من خلفهم بما يعارض القرآن؛ فكانت هذه الآية معجزة مستمرة على تعاقب الأجيال والقرون، قد قرعت بها أسماع المعاندين من العرب، وتواترت بها الأخبار بينهم، مع توافر دواعي المعارضة على أشدها فيهم.

وهذه الآية مدنية، وقوله: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني في مكة - والله أعلم - حيث نزلت آيات عديدة تحدى الله بها المخلوقين، إنسهم وجنهم، في زمان نزوله وبعده - مهما بلغوا من أسباب القوة والكمال في المعارضة - عن الإتيان بمثله، ومن أظهر هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٢)، فعجزوا عن المعارضة، فانقلبوا خاسئين، محسورين^(٣)؛ فتحقق ما أخبر الله به.

ومن هذا القبيل أيضا وعده جل وعلا بأن يكون كتابه محفوظا عن الزيادة والنقصان محروسا عن التغيير والتبديل على طول الزمان، وقد فعل، قال جل في علاه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٤)، والضمير في قوله: ﴿لَهُ﴾ عائذ على الذكر، على الصحيح في تفسير هذه الآية^(٥).

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣-٢٤.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٣) الحُسْرُ والحُسُور: الإعياء، تقول: حَسَرْتَ الدَّابَّةَ وَحَسَرَهَا بَعْدَ السَّيْرِ، فهي حَسِيرٌ ومحسورة. العين للخليل بن أحمد ص ١٨٩.

(٤) سورة الحجر، آية: ٩.

(٥) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٢/٢٥٥.

وهذا الحفظ المذكور في الآية شامل للفظه ومعناه، في جميع الأحوال، في حال إنزاله من استراق الشياطين، وبعد إنزاله حين أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل^(١).

الثاني: ما أخبر فيه من أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، ولم يكن النبي ﷺ تعلم ذلك، ولا قرأه في كتاب، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٢). ومن هذه الأخبار قصص الأنبياء مع أقوامهم، كما قال تعالى في خاتمة قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾^(٣).

القسم الرابع: الإعجاز العلمي:

والمراد به ما ورد في القرآن من إشارات ودلالات على ما تم اكتشافه من حقائق علمية ونتائج مخبرية في الآفاق وفي الأنفس، ويشير إلى هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^(٤) سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^(٥).

وقد اشتدت عناية الباحثين بهذا القسم بعد ظهور الثورة الصناعية وغزو الفضاء والتقدم الهائل في العلوم التجريبية.

(١) انظر: تفسير السعدي ص ٤٢٩.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٨.

(٣) سورة هود، آية: ٤٩.

(٤) سورة فصلت، آية: ٥٢-٥٣.

(٥) وهذا أحد الوجهين في تفسير الآية، وظاهر كلام الرازي يشير إلى ترجيحه. انظر: تفسير الرازي ١٤٠/٢٧.

القسم الخامس: نوع من الإعجاز:

حارت في كنهه الأبواب وعييت عن بلوغ أسبابه الفهوم، وهو عائد إلى ما للقرآن العظيم من سلطان وتأثير على القلوب وهيبة وجلال في النفوس. يقول الخطابي: "وقلت في إعجاز القرآن وجهها آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ في آحادهم، وهو صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس؛ فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا مثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في حال أخرى ما يخلص منه إليه، قال الله تعالى عنه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خُشُوعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾^(٢) اه، باختصار^(٣).

قال برهان الدين الزركشي معقبا على كلام الخطابي: "ولهذا أسلم جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي ﷺ للطور، حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفِعٌ﴾، قال: كاد قلبي يطير، فأسلم، وفي أثر آخر: أن عمر لما سمع سورة طه أسلم، وغير ذلك، وقد صنف بعضهم كتابا فيمن مات بسماع آية من القرآن"^(٤). ويقول صاحب الظلال معلقا على آية الحشر: "والذين أحسوا شيئا من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقاً، لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحى "^(٥).

(١) سورة الحشر، آية: ٢١ .

(٢) سورة الزمر، آية: ٢٣ .

(٣) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٠. وانظر: الشفا

للقاضي عياض ٣٨٤/١.

(٤) البرهان للزركشي ١٠٦/٢.

(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣٥٣٢/٦.

هذه أهم وجوه إعجاز القرآن، وهناك وجوه أخرى لا تقل أهمية عنها، كثيرا ما يذكرها المتصدون لموضوع إعجاز القرآن، مثل جمعه لعلوم ومعارف لم تكن معهودة لدى العرب، ولا غيرهم من الأمم، ومثل كونه لا يملئه قارئه ولا سامعه على كثرة التردد بخلاف سائر الكلام^(١).

وأختم هذا المبحث بما يشير إلى هذين الوجهين، وإلى غيرها، وهو ما أخرجه الترمذي عن الحارث الأعور قال: مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ؛ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ، قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ((أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةً))، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ((كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأٌ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَيْرٌ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا { إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ } مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)). قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ وَفِي الْحَارِثِ مَقَالَ^(٢).

قال ابن كثير بعد إيراد هذا الحديث في مقدمة تفسيره: "الحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من

(١) انظر: الشفا للقاضي عياض ٣٨٩/١، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١٤/١.

(٢) سنن الترمذي ١٧٢/٥ - كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن - حديث رقم ٢٩٠٦.

جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي، عليه السلام، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: ((إن هذا القرآن مآدبة الله تعالى فتعلموا من مآدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن جبل الله عز وجل، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، لا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إنني لا أقول لكم الم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر))^(١). وهذا غريب من هذا الوجه^(٢). فيحتمل، والله أعلم، أن يكون - أبو إسحاق الهجري - وهم في رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم " انتهى باختصار^(٣).

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص ٢١.

(٢) وهو من رواية محمد بن فضيل عن أبي إسحاق الهجري أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيرا. قال أبو حاتم الرازي: لين ليس بالقوي. وقال أبو الفتح الأزدي: رفاع كثير الوهم. انظر: الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٥٢/١، وتفسير ابن كثير ٢١/١، وتهذيب التهذيب ١٤٣/١.

(٣) تفسير ابن كثير ٢١/١ ط دار طيبة، بتحقيق سامي سلامة.

الفصل الأول

جوامع كلم القرآن وصلتها بالإعجاز اللغوي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الكلمة الجامعة

المبحث الثاني: أقسام الكلمة الجامعة في القرآن

المبحث الثالث: إعجاز القرآن اللغوي وجوامع الكلم

مدخل:

الجزء الأول من عنوان هذا الفصل هو أصل هذا البحث ومنطلقه، وهو مقتبس من حديث نبوي كريم، رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ))، وفي رواية: ((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ))^(١). قال ابن الأثير: "يَعْنِي الْقُرْآنَ جَمَعَ اللَّهُ بِلُطْفِهِ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ مِنْهُ مَعَانِي كَثِيرَةً، وَاحِدَهَا جَامِعَةٌ، أَيْ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ"^(٢).

وقال ابن رجب: "جوامع الكلم التي خُصَّ بها النبي ﷺ نوعان: أحدهما: ما هو في القرآن، والثاني: ما هو في كلامه ﷺ، وهو منتشر موجود في السنن المأثورة عنه ﷺ "اهـ باختصار"^(٣).

وقد جزم غير واحد بأن المراد بجوامع الكلم هو القرآن بقرينة قوله: ((بُعِثْتُ))، لاسيما وأن القرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني، وعليه فإن دخول القرآن في المراد بهذا الحديث مما لا شك فيه^(٤). والحديث يشير إلى أن أعظم وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن هو حمله للمعاني الكثيرة الواسعة في كلمات قليلة معدودة.

فلما كانت جوامع الكلم بهذه المنزلة، وهي سر إعجاز القرآن البلاغي؛ تطلب الأمر عقد فصل يعرف بالكلمة الجامعة، ويبين أقسامها، ويتناول الإعجاز البلاغي في القرآن بشيء من التفصيل، ويوضح صلة جوامع كلم القرآن بهذا الإعجاز.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التعبير ٢٥٧٣/٦ - باب المفاتيح في اليد - حديث رقم ٦٦١١، ومسلم ٣٧١/١

في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - حديث رقم ٥٢٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٩٥/١.

(٣) جامع العلوم والحكم ٥/١.

(٤) أفاده ابن حجر في الفتح ٢٤٧/١٣، ٢٤٨.

المبحث الأول تعريف الكلمة الجامعة

الكلمة الجامعة مركب وصفي مكون من لفظين: الكلمة، والجامعة، ولكي يتبين معنى هذا المركب ينبغي الوقوف أولاً عند معنى كل لفظ من جزأيه على إنفراد.

يعرف علماء العربية الكلام بأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير، وهو عبارة عما اجتمع فيه أمران: اللفظ، والإفادة، ويعنون بها الدلالة على معنى يحسن السكوت عليه، وأقل ما يتألف منه الكلام اسمان مبتدأ وخبر، أو فعل واسم^(١). وأما الكَلِم فهو اسم جنس جمعي، يستوي فيه المذكر والمؤنث، ولا يكون أقل من ثلاث كلمات، واحده كَلِمَة بفتح الكاف وكسر اللام، على لغة أهل الحجاز^(٢).

والكَلِمَة: هي اللفظ^(٣) الموضوع لمعنى مفرد^(٤).

وهي تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلفة من عدة حروف، ذات معنى، سواء كانت اسماً، أو فعلاً، وتقع على قصيدة بكمالها، وخُطبة بأسرها^(١).

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ١١/١.

(٢) انظر: العين للخليل بن أحمد ص ٨٥٢، والصاحح للجوهري ٢٠٢٣/٥، ولسان العرب لابن منظور ٥٢٣/١٢، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ١٢/١.

(٣) اللفظ في اللغة: هو الرمي، وفي الاصطلاح: صوت معتمد على بعض مخارج الحروف. فلما كان الصوت يخرج من الفم صار كالجواهر المرمي منه، فهو ملفوظ، في إطلاق اللفظ على الملفوظ من باب تسمية المفعول باسم المصدر. انظر: شرح الكوكب المنير لابن النجار ١٠٤/١.

(٤) والمراد بالمفرد ما لا يدل جزؤه على جزء معناه مثل رجل وفرس إذا انفرد شيء من حروف أحدهما الثلاثة؛ فإنه لا يدل على شيء مما دلت عليه جملة بخلاف قولنا غلام زيد فإنه مركب؛ لأن كلا من جزأيه وهما غلام وزيد دال على جزء المعنى الذي دلت عليه جملة غلام زيد. انظر: شرح شذور الذهب لابن هشام ص ١٦.

ومما يؤكد هذا أن القرآن استعمل لفظ "كلمة" على هذا النحو، تارة بمعنى الجملة الجامعة، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَكَتْ صُورَةَ اللَّهِ كَمَا تُرَكِّيهِمْ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: شهادة أن لا إله إلا الله^(٢). وتارة بمعنى القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾^(٣)، قال الإمام الطبري: "﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾"، يعني القرآن، سماه "كلمة"، كما تقول العرب للقصيدة من الشعر يقولها الشاعر: "هذه كلمة فلان" اهـ^(٤). وهو قول جمهور المفسرين، وقد أطلق في القرآن الكلمات على الكتب السماوية في قوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾^(٥) أي كتبه^(٦).

وأما الجامعة: فهي اسم فاعلة من جَمَعَتْ فهي جامعة، كما يقال في المذكر: جَمَعَ، فهو جامع، والجامعة مشتقة من الجمع، ويعود معناه إلى أصل واحد، وهو ضم الشيء، بتقريب بعضه من بعض، ومنه المسجد الجامع؛ لأنه يجمع أهله، وجامعة تجمع على جوامع، ومن ذلك ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: ((كَانَ

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٢٦٤/١٠، ولسان العرب لابن منظور ٥٢٣/١٢، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١٠ / ١.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٢٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٠٣/١٣، وتفسير ابن كثير ٥٣١/٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١١٥.

(٥) تفسير الطبري ٥/٨.

(٦) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

(٧) انظر: التحرير والتنوير ١٩/٨.

أحب الدعاء إلى رسول الله الجوامع من الدعاء^(١)، وهو ما جمع مع الوجازة
خير الدنيا والآخرة، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢) (٣).

بناء على ما تقدم يمكن تعريف الكلمة الجامعة: بأنها كل لفظ، أو جملة،
أو جمل وجيزة، دل، أو دلت على معان كثيرة.

وقولنا: لفظ يشمل المصطلح القرآني الجامع، و اللفظ المشترك المستعمل في
معانيه، واللفظ المستعمل في حقيقته ومجازه، واللفظ الذي تقاربت في تفسيره
أقوال المفسرين.

وقولنا: جملة نعني بها الجملة المفيدة الموجزة التي ركبت من خلال
أسلوب من أساليب البلاغة كالتشبيه والاستعارة والحذف ونحوها.

وقولنا: جمل نعني بها القطعة من الكلام المفيد، المكونة من ألفاظ، وجمل،
قليلة المباني، غزيرة المعاني.

وبناء على هذا التعريف يمكن أن نقول بأن الكلمة الجامعة في القرآن
يصح إطلاقها على اللفظ الواحد، والجملة الواحدة، والآية الواحدة، والسورة
الواحدة، كما سيأتي بيانه في مواضعه.

(١) أخرجه الضياء المقدسي في كتاب الترغيب في الدعاء ص ١٢٤، وسنده صحيح.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠١ .

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٣٩٦/١، معجم المقاييس لابن فارس ٤٧٩/١، والمفردات للراغب
الأصفهاني ص ٩٥، والمثل السائر لابن الأثير ٦٥/١، والشماثل الشريفة للسيوطي ص ٣١٠.

المبحث الثاني

أقسام الكلمة الجامعة في القرآن

تقدم في المبحث السابق أن الكلمة الجامعة كما أنها تقع على اللفظ المفرد تقع على القطعة من الكلام، وتقع على الجمل، أو الجملة، المركبة من ألفاظ يسيرة. أما التي تقع على القطعة من الكلام، فمثالها في القرآن السور القصيرة، التي تميزت بقصر آياتها، وقلة عددها، وجزالة ألفاظها، وبلاغة تراكيبها، وكثرة معانيها.

وأما التي تقع على الجمل، فمثالها في القرآن الآية التي اشتملت على جملة، أو جمل قصيرة، بليغة، كثيرة المعاني والدلالات.

وقد تكون الكلمة الجامعة واقعة على جملة واحدة، قليلة الألفاظ، غزيرة المعاني، وتكون بعضا من آية، وهذا كثير في القرآن.

وأما الكلمة الجامعة التي تقع على اللفظ المفرد؛ فالحديث عنها يقتضي أن أتناول قبل، باختصار تقسيمات الألفاظ في اللغة، من حيث الاتفاق والاختلاف، ومن حيث الحقيقة والجاز.

فالألفاظ في لغة العرب من حيث الاتفاق والاختلاف تنقسم إلى أقسام، أشهرها ثلاثة^(١):

الأول: المتباينة، وهو الأعم الأكثر، وهو اختلاف الألفاظ لاختلاف معانيها، وهذا لا سبيل إلى جمعه وحصره؛ لأن أكثر الكلام عليه.

(١) انظر: هذه الأقسام في كتاب المستصفى للغزالي ص ٢٦، وروضة المحبين لابن القيم ص ٥٣، ومختصر

المنتهى لابن الحاجب وشرحه للشريف الجرجاني ١٢٦/١، وشرح الكوكب المنير لابن النجار ٩٨/١،

١٣٧، ومعجم أسماء الأشياء لأحمد الدمشقي ص ١٢.

الثاني: المترادفة، والتزادف هو دلالة عدة ألفاظ مختلفة ومنفردة على المعنى الواحد دلالة واحدة، مثل الجلوس والقعود والحنطة والقمح^(١).

والألفاظ المترادفة نوعان:

أحدهما: المترادفة ترادفاً محضاً، والدلالة على هذا النوع باعتبار الذات فقط، كالحنطة والقمح والبر أسماء لذات واحدة أتي بها لمجرد التعريف.

والنوع الثاني: المترادفة ترادفاً نسبياً، وهي الألفاظ التي تكون مترادفة بالنسبة إلى الذات متبينة بالنسبة إلى الصفات، كأسماء الله تعالى، فالرب والرحمن والعزير والقدير والملك مترادفة باعتبار أنها تدل على ذات واحدة، ومتبينة باعتبار أنها صفات متعددة، وهكذا أسماء القرآن: القرآن، والفرقان، والكتاب، ونحوها.

بيد أن التزادف في اللغة عند الإطلاق ينصرف إلى هذا النوع، وهو التزادف بين الألفاظ التي لها معانٍ متقاربة، ويمكن أن يجمعها معنى واحد، كما يقال: أصلح الفاسد، ولم الشعث، ورتق الفتق، فهي تشترك في معنى عام واحد.

الثالث: المشتركة: وهو أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى، فيكون اللفظ الواحد دالاً على معنيين فصاعداً مثل: لفظ العين، يطلق على الباصرة، والجارية، والشمس.

وقد اعتنى بالتزادف والاشتراك المصنفون في علوم القرآن باعتباره واحداً منها، ويطلقون عليه الوجوه والنظائر.

قال السيوطي: "صنف فيه قديماً مقاتل بن سليمان، ومن المتأخرين ابن الجوزي وابن الدامغاني وأبو الحسين محمد بن عبد الصمد المصري وابن فارس

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ص ١١٩، والتزادف في اللغة للحاكم الزيادي ص ٣٢.

وآخرون، فالوجوه: اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ الأمة، وقد أفردت في هذا الفن كتاباً سمّيته معترك الأقران في مشترك القرآن، والنظائر: كالألفاظ المتواطئة " اهـ^(١)، ويعني بها المترادفة.

وأما الألفاظ من حيث الحقيقة والمجاز، فتنقسم إلى قسمين^(٢):

الأول: الحقيقة، وهو اللفظ المستعمل على أصل وضعه في اللغة.

والثاني: المجاز، وهو ما كان بضد ذلك، فهو اللفظ المستعمل في غير موضوعه، على وجه يصح.

وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة؛ لمعان ثلاثة، هي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عذمت هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة.

ومتى دار اللفظ بين الحقيقة والمجاز فهو للحقيقة، ولا يكون مجازاً إلا أن يدل دليل على أنه أريد به المجاز.

والحقيقة تكون لغوية إن كان واضعها واضع اللغة، كلفظ أسد إذا استعمله المخاطب في أصل وضعه في السبع المخصوص.

وتكون شرعية إن كان واضعها هو الشارع، كلفظ الصلاة في العبادة المخصوصة، وكلفظ التقوى، والتوبة، ونحوها، والتي صارت مصطلحات شرعية، جامعة، لها معان مخصصة في عرف الشارع.

وتكون عرفية، خاصة أو عامة، والخاصة كالابتداء والخير في عرف النحويين، والعامة كلفظ: دابة إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في ذي الأربع.

(١) الإتيان ١/١٨٥.

(٢) انظر: هذا التقسيم في كتاب الخصائص لابن جني ٢/٤٤٢، روضة الناظر لابن قدامة ١/١٧٣،

والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص ٢٤٥، والزهر في علوم اللغة والأدب للسيوطي

١/٢٨٢، وشرح الكوكب المنير لابن النجار ١/١٥٠.

وقد اختلف علماء العربية وعلماء أصول الفقه في جواز حمل المشترك على معنيه أو معانيه، أو استعمال اللفظ في حقيقته وبجازه، فمنعه بعضهم، وعده خطبا عظيما؛ لأنه لم يكن معهودا في كلام العرب أو لندرتة قبل نزول القرآن^(١).
والصحيح الذي عليه الجمهور جواز استعمال المشترك في معنيه أو معانيه، وهو ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية، وغير واحد من المحققين^(٢).
كما أنه يصح حمل اللفظ على حقيقته وبجازه على القول الراجح^(٣).
وبناء على ما تقدم يمكن الخلوص إلى أن الكلمة الجامعة في القرآن تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الكلمة الجامعة الواقعة على سورة من سور القرآن.

القسم الثاني: الكلمة الجامعة الواقعة على آية من آيات القرآن.

القسم الثالث: الكلمة الجامعة الواقعة على جملة من جمل القرآن.

القسم الرابع: الكلمة الواقعة على لفظ مفرد من ألفاظ القرآن.

وهذا القسم تحته أربعة أنواع، بحسب نوع اللفظ الجامع، وهي:

النوع الأول: الكلمة الجامعة الواقعة على اسم، يعد من مصطلحات القرآن.

النوع الثاني: الكلمة الجامعة الواقعة على لفظ مشترك، مستعمل في معنيه، أو معانيه.

النوع الثالث: الكلمة الجامعة الواقعة على لفظ مستعمل في حقيقته وبجازه.

النوع الرابع: الكلمة الجامعة الواقعة على لفظ ترادفت في بيانه أقوال المفسرين.

(١) انظر: التبصرة لأبي إسحاق الشيرازي ص ١٨٤، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٩٨/١، وأضواء البيان للشنقيطي ٤٢٥/٥.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٣٤٠/١٣، وإرشاد الفحول للشوكاني ص ٤٦، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٩٩/١ وأضواء البيان للشنقيطي ٤٢٥/٥. قال رحمه الله تعالى: "والحق الذي لا شك فيه أن المشترك يطلق على كل واحد من معنيه، أو معانيه في الحال المناسبة لذلك".

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٩٩/١.

المبحث الثالث إعجاز القرآن اللغوي وجوامع الكلم

الإعجاز القرآني عند الإطلاق يكاد يكون محصورا بواحد من أهم أقسامه، وهو الإعجاز اللغوي^(١). ولذا لم تخرج مصنفات المتقدمين في موضوعها عنه^(٢).

وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه بابا سماه: باب قول النبي ﷺ: بعثت بجوامع الكلم، وأورد تحته حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَا مِنْ أَلْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرَجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ))^(٣). والحديث صريح في أن معجزة النبي ﷺ الخالدة هي القرآن كما تقدم في التمهيد.

يبد أن إيراد الإمام البخاري لهذا الحديث في هذا الباب يشير إلى أن الإعجاز البلاغي هو الأظهر من بين وجوه إعجاز القرآن؛ بدلالة قوله ﷺ: ((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ))، وأن المراد به القرآن كما تقدم^(٤). كما أن هذا الحديث يشير إلى أن جوامع كلم القرآن هي من أعظم الشواهد وأكثرها دلالة على إعجازه اللغوي.

(١) انظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي ص ٥٤.

(٢) فمن أول من صنف في هذا الفن الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وسمى كتابه نظم القرآن، ثم ألف محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ كتابه إعجاز القرآن، ثم وضع على بن عيسى الرماني المعتزلي المتوفى سنة ٣٨٦ كتابه النكت في إعجاز القرآن، وألف أبو سليمان الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ كتابه بيان إعجاز القرآن، تلاه القاضي أبو بكر البقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فوضع كتابه إعجاز القرآن، ثم وضع عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ كتابه دلائل الإعجاز. انظر: إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي ص ١٢٧.

(٣) تقدم تخريجه، انظر: ص ١٣ من هذا البحث.

(٤) تقدم تخريج الحديث والتعليق عليه، انظر: ص ١٤.

ولذا فإن الغرض من عقد هذا المبحث: هو بيان وجوه إعجاز القرآن اللغوي، وكيف أن جوامع كلمه تعد من أظهر هذه الوجوه وأبلغها.

لقد أدرك العرب الفصحاء البلغاء عند نزول القرآن أنه معجزة بيانية باهرة؛ فإنهم لما كذبوا النبي ﷺ وأعرضوا عن متابعتهم؛ حاجهم على إثبات صدقه بالوحي، وجعل الدليل على أنه من عند الله عجزهم عن معارضته - رغم أنه مركب من حروف لغتهم، ومن كلماتها، وعلى أساليب تراكيبها، كما أنه قد أودع من الخصائص البلاغية ما عرفوا أمثاله في كلامهم - فانقطعوا عن معارضته؛ فكان دليلاً قاطعاً على أنه بلغ حداً في البلاغة والفصاحة لا يستطيعه البشر؛ فانتهوا بفطرتهم إلى أن لا طاقة لهم بمثله؛ فاستيئسوا من معارضته، وقد كانوا من علو الهمة ورجاحة الرأي، بحيث لا يعرضون أنفسهم للافتضاح، ولا يرضون لأنفسهم بالانتقاص؛ لذلك رأوا أن الإمساك عن المعارضة أخرى بهم، واحتملوا النداء عليهم بالعجز عن المعارضة في مثل قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١)، وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢)، ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٣). ولما كان القرآن بهذه المنزلة الرفيعة من الإعجاز البياني اعتنى به العلماء والباحثون من أئمة التفسير واللغة، وعكفوا على النظر في أسرار إعجاز بيانه، واستخراج وجوه فصاحته وبلاغته^(٤).

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣-٢٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣/١.

(٤) والفرق بين الفصاحة والبلاغة كما يقول الخفاجي: أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً. سر الفصاحة للخفاجي ص ٥٩.

وإذا كان الكلام المولّف يعود في تأليفه إلى حروف في كلمات، وكلمات في جمل، وجمل في نظم؛ فإن الإعجاز البلاغي للقرآن ظاهر في كلماته، وجمله، ونظمه، وأسلوبه.

أما كلماته فقد بلغت أعلى درجات الفصاحة والبيان^(١).

ومن أعظم وجوه فصاحتها أنها جمعت بين صفتي الجزالة والعذوبة، وهما كالتضادين في كلام البشر؛ لأن الألفاظ الجزلة تغلب عليها القوة والفخامة وبعض الوعورة، كما أن الألفاظ العذبة يغلب عليها السلاسة والسهولة دون القوة، فجمعت ألفاظ القرآن محاسن الفصاحة كلها، وهو مما يتعذر على البشر إدراكه^(٢).

نقل القاضي عياض عن أبي عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾^(٣)، فسجد، وقال سجدت لفصاحته^(٤). وموضع التأثير في هذه الجملة هو في كلمة: ﴿فَأَصْدَعْ﴾ في جزالتها وعذوبتها، وأيضا ما تضمنته من المعاني الكثيرة، وكذلك كلمة: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ في إيجازها وما جمعتها من المعاني^(٥).

إن من أعظم دلائل إعجاز القرآن اللغوي اشتماله على جوامع الألفاظ؛ فتجد اللفظ الواحد منها قد حمل المعاني الكثيرة، التي لا تتضاد، ولا تتنافر، وسياق الكلام دال عليها ومتناسب معها.

(١) اشترط علماء البلاغة شروطا عدة لفصاحة الكلمة، منها: تباعد مخارج حروفها، ومنها رشاقة لفظها وأنها لا تكون وحشية متوعدة، ومنها عذوبة وقعها على السمع لوجه في تأليف الكلمة، ومنها أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة، ومن الشروط أيضا أن لا يتجاوز عدد حروف الكلمة حد الاعتدال. انظر: سر الفصاحة ص ٦٣، والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص ٢، وإعجاز القرآن للرافعي ص ١٨٦.

(٢) انظر: البيان في إعجاز القرآن للخطابي - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - ص ٢٦، والبرهان للزركشي ١٠٧/٢.

(٣) سورة الحجر، آية: ٩٤.

(٤) الشفا ٣٦٥/١.

(٥) انظر: التحرير لابن عاشور ١٠٧/١. وسيأتي مزيد توضيح لهذه الآية في الفصل الثاني إن شاء الله.

فمن ذلك أنه جاء بأسماء جامعة، تعد من مبتكرات القرآن، كالعبادة، والإيمان والتقوى، ونحوها، كما سيأتي تفصيله في موضعه.
ومنها أنه استعمل اللفظ المشترك بمعنييه أو معانيه المتعددة، دون تعارض بينها.
ومنها أيضا أنه استعمل اللفظ المحتمل للحقيقة والحجاز بمعنييه في الموضع الواحد.
ومنها أنك تجد اللفظ الواحد قد ترادفت في تفسيره أقوال المفسرين؛ فلا يفي ببيانه قول واحد.

وهذا يكشف طرفا من وجوه الصلة بين إعجاز القرآن اللغوي وجوامع كلمه.

وسيأتي بيان ذلك، على التفصيل، في الفصل القادم.
وأما الجمل فهي كذلك قد تلاقت كلماتها في تراكيبها، وتآخت في جرسها ومعانيها، وكأنما هي نسيج واحد، وهذا ظاهر في كل آيات القرآن، فلا تنافر في الألفاظ ولا المعاني، وهما في مجموعهما ينسابان في النفس كالغذاء الهنيء وكالماء الزلال^(١).

وإذا كان علماء البيان قد اشترطوا لفصاحة الجمل وبلاغتها أن تكون الكلمات فصيحة في ذاتها قبل تركيب الجملة، وفصيحة وبليغة أيضا بعد التركيب، بحيث توضع الكلمات في مواضعها المناسبة؛ فإن القرآن أتى في هذا الباب بكل الجمال والجلال والكمال مما يعجز اللسان عن استيفاء وصفه^(٢).

(١) انظر: المعجزة الكبرى لأبي زهرة ص ٩٥، ١٢٨.

(٢) يشترط لفصاحة الجمل وبلاغتها أن تكون كلماتها المولفة لها فصيحة بذاتها كما تقدم في شروط الكلمة الفصيحة، ويشترطون لها داخل الجملة التناسب بين ألفاظها ومعانيها، وأن توضع الكلمة في موضعها الصحيح؛ لأن الإخلال بهذا الشرط يترتب عليه ضعف الجملة أو فساد معناها بسبب تقديم ما عمله التأخير أو العكس، أو أن تكون الكلمة فيها حشوا، أو أن تكون كلمات الجملة متداخلة يركب بعضها بعضا، أو أن يؤتى بكلمة لا تليق بغرضها كألفاظ الذم في المدح أو العكس ونحو ذلك. ومن أهم شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز فيعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة وكتاب الله تعالى له القدح المعلى في هذا. انظر: سر الفصاحة للخفاجي ص ٩٧ وما بعدها، والإيضاح للخطيب القزويني ص ٥.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَالَصُوا بِحَيَّتَا﴾^(١)، قد تحير في فصاحته جميع البلغاء، ويمتنع أن يوجد مثله في كلام البشر.

وقوله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(٢) كلمتان، استوعبتا جميع الأشياء، على غاية الاستقصاء^(٣).

إن من أجل ما برع به القرآن من وجوه البلاغة - الإيجاز، وتوفير المعاني الكثيرة؛ بأوضح عبارة وأخصرها^(٤).

وهو على نوعين^(٥): إيجاز بحذف، وإيجاز بلفظ.

أما إيجاز الحذف: فهو ما يكون بحذف جزء جملة، أو بحذف جملة، أو أكثر من جملة.

فمثال الإيجاز بحذف جزء جملة قوله تعالى: ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ﴾^(٦)، أي: أهلها. وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾^(٧)، أي: تناولها. والمحذوف في الموضعين المضاف.

وقد يكون المحذوف جواب الشرط، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا سِيرَت بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾^(٨)، أي: لكان هذا القرآن. وكقوله

(١) سورة يوسف، آية: ٨٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٤.

(٣) انظر: هذين المثالين في الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ص ١٧٦.

(٤) قال الخفاجي في سر الفصاحة ص ٢١١: "ويجب أن نحد الإيجاز المحمود بأن نقول: هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ" اهـ.

(٥) انظر: النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن الرماني - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - ص ٧٦، والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص ١٧٧، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٢٠/٣، ومعتزك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ٢٩٥/١.

(٦) سورة يوسف، آية: ٨٢.

(٧) سورة المائدة، آية: ٣.

تعالى في شأن من يكره الإمام على البغاء: ﴿وَمَنْ يُكَرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، فجواب الشرط هنا محذوف؛ إيجازاً، واستغني عنه بذكر علته؛ لأن "إن" في هذا المقام يفيد التعليل، ويغني عن اللام، والتقدير: ومن يكرههن؛ فلا إثم عليهن؛ لأن الله - من بعد إكراههن - غفور رحيم لأمثالهن، ممن أكره على فعل هذه الجريمة^(٢).

وقد يكون حذف الجواب؛ للتسهيل، وتقدير المعاني الكثيرة، وأنه شيء لا يحيط به الوصف؛ فتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن، فلا تتصور مكروهاً إلا جوزت أن يكون الأمر أعظم منه، ولو ذكر الجواب؛ لاقصر عليه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾^(٣)، فجواب «لو» محذوف؛ ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراهم إذا وقفوا على النار؛ لرأيت منظرًا هائلاً وحالاً فظيعاً^(٤).

وأما الإيجاز بحذف جملة، فكقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فأنفجرت من ثلث عشرة عيناً^(٥)، أي: فضربه بها؛ فانفجرت منه اثنا عشرة عينا. وأما الإيجاز بحذف أكثر من جملة، فمثاله: قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾^(٦)، أي: فأتياهم، فأبلغاهم الرسالة، فكذبوهما، فدمرناهم. وكقوله تعالى: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾^(٧) يوسف

(١) سورة الرعد، آية: ٣١.

(٢) سورة النور، آية: ٣٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٢٨/١٨.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٢٧.

(٥) انظر: الكشف ١٦/٢، وفتح القدير للشوكاني ١٠٨/٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ٦٠.

(٧) سورة الفرقان، آية: ٣٦.

أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَنَّا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ ... ﴿١﴾، أي أنا أنبئكم بتفسيرها؛ فأرسلوني إلى يوسف؛ لاستعبيره الرؤيا، فأرسلوه إليه، فأتاه، وقال له: يا يوسف أيها الصديق أفتنا... .

وأما النوع الثاني فهو إيجاز باللفظ: أي أن الإيجاز عائد إلى نوع ألفاظه، وهو أنواع، وأهمها وأدناها على المقصود هو المسمى بالإيجاز الجامع، وهو أن يحتوي اللفظ على معان متعددة ^(٢). كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ ^(٣)، فلفظ حياة لفظ جامع. وإذا اشتملت الجملة الواحدة على لفظ جامع أو أكثر صارت جملة جامعة، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ^(٤)، فإن العدل والإحسان والإيتاء والفحشاء والمنكر والبغي كلها ألفاظ جامعة.

ولذا تجد في القرآن كثيرا من الآيات الجامعة والجمل الجامعة، كما سيأتي بيانه بالتفصيل في الفصل القادم.

لكن، من المهم التنبيه هنا إلى أن هذا النوع من الإيجاز يكشف طرفا آخر من وجوه الصلة بين إعجاز القرآن اللغوي وجوامع كلمه. وقد يكون الإيجاز؛ لأن الجملة جاءت على هيئة تمثيل، أو استعارة، ونحوها من وجوه الإيجاز.

(١) سورة يوسف، آية: ٤٥-٤٦ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ٢٩٥/١ .

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٩ .

(٤) سورة النحل، آية: ٩٠ .

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾^(١)، فقد استعير خروج النفس شيئاً فشيئاً لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلاً قليلاً بجامع التابع على طريق التدرج، وبين معنى الكلمتين تناسب ظاهر، فلو تأملنا كلمة "الصبح" لوجدنا أنه لا يسد مسدها كلمة أخرى مرادفة لها كالفجر مثلاً؛ لأن الصبح يدل على النور الذي يتخلل الظلمة ويسري فيها شيئاً فشيئاً، والفجر لا يدل إلا على شق الظلمة وابتداء نهايتها فحسب، وكذلك كلمة "تنفس" تدل على بدء مظاهر الحياة شيئاً فشيئاً، فلا يغني عنها أي كلمة غيرها كأشرق مثلاً^(٢).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾^(٣)، أي لا تصرفوا إليهم أدباركم، وتولية الأدبار كناية عن الفرار من العدو، بقرينة ذكره في سياق لقاء العدو، قال ابن عطية: "والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة؛ لأنها بشعة على الفار دامة له" اهـ^(٤).

(١) سورة التكوير، آية: ١٨ .

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي ٥٨/٢، والمعجزة الكبرى لأبي زهرة ص ١١٢ .

(٣) سورة الأنفال، آية: ١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٣١/٨. وظاهر كلامه يدل على أن مراده بفصاحة العبارة بلاغتها، وكل بليغ من الكلام فصيح كما تقدم. ومن الأمثلة على الإيجاز قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يوسف: ١٠٠، احتصر القصة كلها في هذه الآية؛ لأنه ذكر أصول الأسباب المستلزمة جميع المسببات التي هي جملة القصة، فإن قوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ اقتصر على ذكر رؤياه التي كانت سبب حسد إخوته حين فعلوا به ما فعلوا، وذكر خروجه من السجن الذي كان سبباً في الملك الذي كان سبباً في اجتماعه بأبيه وإخوته، فكانه قد اقتصر جميع القصة مختصرة لمن يشارك في علمها، فالأولى لعلم تفاصيلها، والثانية لعلم جملها، وهذا أحسن إيجاز وقع في كلام. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ص ٤٧٠.

ومن أنواع الإيجاز في القرآن أيضا إيراد الجمل البليغة، الجارية بحرى
 الأمثال، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ
 وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٢)، وقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(٣)، وقوله: ﴿قُلْ
 كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^{(٤) (٥)}.

وكلا النوعين يعد من جوامع كلم القرآن الدال على إعجازه اللغوي.
 ومن بديع الإيجاز في القرآن التضمن، وهو فن بلاغي يتعلق بإيجاز
 الحذف، وهو أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر، ويشار
 إلى المعنى المضمن، بذكر ما هو من متعلقاته، من حرف أو معمول، فيحصل
 في الجملة معنيان، كقوله تعالى ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٦) فقوله: ﴿يَشْرَبُ﴾ إنما
 يتعدى بـ "من"، فتعديته بالباء؛ على تضمينه معنى يروى ويلتذ، فالتقدير: عينا
 يشرب ويلتذ بها عباد الله، ومن أمثلة التضمن أيضا قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾^(٧) فقوله: ﴿وَنَصَرْتَهُ﴾ هنا مضمنة معنى الإنجاء
 والتخليص؛ لأن الإنجاء يتعدى بمن، فالتقدير: نصرناه وأنجينا من الذين كذبوا
 بآياتنا، ومنها أيضا قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ لِسُوَالِ نَجْوِكَ إِلَيَّ نَعَايِهِ﴾^(٨)،

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣ .

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٤٦ .

(٣) سورة التوبة، آية: ٩١ .

(٤) سورة الإسراء، آية: ٨٤ .

(٥) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٢٣ .

(٦) سورة الإنسان، آية: ٦ .

(٧) سورة الأنبياء، آية: ٧٧ .

(٨) سورة ص، آية: ٢٤ .

فسؤال مصدر مضاف إلى المفعول، وإنما تعدى بـ ﴿إِلَى﴾؛ لأنه تضمن معنى الإضافة، كأنه قال: بسؤال نعتك، مضافة أو مضمومة إلى نعاجه^(١). وهذا الإيجاز الذي صار سمة للكتاب المبين - له أغراض جلييلة، وحكم باهرة:

منها: أنه لما كان القرآن كتاب هداية وتشريع وتعليم اقتضى ذلك أن يودع من المعاني والأحكام والحكم والمقاصد - أقصى ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، من خلال لغة هي أفصح لغات البشر، وأسمحها ألفاظا وتراكيب، وأغزرها معان ودلالات.

ومنها: أن الله جعل القرآن آية على صدق رسوله ﷺ، فتحدى به العرب أن يأتوا ولو بأقصر سورة من مثله، فهالهم ما فيه من إيجاز، فاق ما عهدوه من كلام بلغائهم، لاسيما وأن هذا الإيجاز كان عمود بلاغتهم، فلم يسعهم إلا الإذعان.

ومنها: تيسير حفظ القرآن وسهولة اعتلاق كلمه بالأذهان^(٢).

يقول الإمام ابن عاشور: "وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها في تراكيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الأسماع وإن لم تكن متماثلة الحروف في الأسجاع، كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ، خفيف الانتقال والسير في القبائل" اهـ^(٣).

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/٣٣٨، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٣/١٨٣،

والإتقان للسيوطي ٢/١٠٩، والتحرير والتنوير ١/١٢٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/٩٣.

(٣) التحرير والتنوير ١/١١٩.

وأما النظم القرآني، فقد نُسج نسجاً، بالغاً منتهى ما تطيقه اللغة العربية، من الدقائق واللطائف، لفظاً ومعنى، بما يفى بأقصى ما يراد إبلاغه إلى المرسل إليهم.

لقد جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة؛ مما جعل الإتيان بمثل القرآن ميداناً للتحدي، ومعجزاً لأكابر الفصحاء من العرب.

ويظهر قصور البشر؛ أنك ترى الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها دهرًا، ثم تعطى لآخر نظيره، فيأخذها بقرينة جامدة، فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. أما كتاب الله المعجز، لو نزعته منه لفظة واحدة، ثم نقب أكابر علماء اللغة في لسان العرب في أن يجدوا أحسن منها لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً. كما قال تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

ومن أعظم مظاهر إعجاز نظم القرآن أنه جاء وفق أساليب مبتكرة، لم تكن معهودة في كلام العرب، كأسلوب التقسيم، والتسوير سورة سورة، ومنه دخلت طريقة التبويب والتصنيف عند العرب.

وتجد في سور القرآن سوراً قصيرة جامعة شاهدة على إعجاز القرآن ورووعته، قد جاءت آياتها في أجمل نظم، وسبكت كلماتها سبكاً يأخذ بالألباب، كسورة الفاتحة مثلاً، كما سيأتي بيانه في موضعه.

ومن مظاهر إعجاز نظم القرآن الأسلوب القصصي، الذي شغل مساحة واسعة من السور المكية، وقد أبدع فيه القرآن، وكان من أمضى أساليب

(١) سورة النساء، آية: ٨٢ .

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥٢/١، وتفسير القرطبي ٧٦/١.

الدعوة، وأبلغها تأثيراً في المدعويين، كما أنه كان عظيماً في مؤانسة وتصبير النبي ﷺ، وأصحابه، وتثبيتهم.

ويعد هذا الأسلوب لوناً من ألوان التصريف البياني في القرآن، ومن ذلك تكراره للقصة الواحدة، في مواضع كثيرة من القرآن، ما بين إيجاز لها وإطناب، لكنها تساق في كل موضع بالقدر الذي يناسب موضوع السورة، ويحقق أغراضها، وتؤلف على نظم وتركيب خاص بذلك الموضع ومغاير للمواضع الأخرى^(١).

فإنك ترى القصة الواحدة، التي تكاد تتطابق معانيها، تأتي في صور مختلفة، وقوالب من الألفاظ متعددة، حتى لا تكاد تشته في موضعين منه، وهذا من الإحكام^(٢).

ومن الإحكام كذلك: أنك ترى القصة الواحدة تتكرر، وقد اتفقت كلها، وتواطأت، فليس فيها تناقض، ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً؛ انبهر عقله، وذهل لبه؛ من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً، لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد^(٣).

وقد مدح الله قصص القرآن بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(٤)، وما ذاك إلا لحسن نظم قصصه، وإعجاز أسلوبها، ولما تضمنته من الحقائق والعبر والحكم والنكت والفوائد والعجائب^(٥).

(١) انظر: المعجزة الكبرى لأبي زهرة ص ١٨٧.

(٢) انظر: الإتيان للسيوطي ٢/٢٣٦.

(٣) انظر: تفسير السعدي ص ٦٤٦.

(٤) سورة يوسف، آية: ٣.

(٥) انظر: الكشف ٢/٤١٥، والتحرير والتنوير ١٢/٢٠٣.

ومن مظاهر إعجاز نظمها ما اشتمل عليه من الأمثال الرائعة، التي أبدع
أيما إبداع في تركيبها وتوضيحها.

فمن هذه الأمثلة ما جاء في قوله تعالى ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ ﴿١﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ إِذْ
رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾^(١)، "فشبه سبحانه شجرة
التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة، الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء
علوا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه؛ رأيته مطابقا
لشجرة التوحيد، الثابتة، الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة
صاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة، كل وقت،
بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها،
وقيامه بحققها ومراعاتها حق رعايتها" ^(٢).

ومن تشبيهات القرآن البديعة أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ
مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ۝﴾^(٣)، قال قتادة: "هذا
مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه" اهـ ^(٤).

فقد شبه القرآن الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه - بالسماء، التي
هي مصعده ومهبطة، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك
الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء، إلى أسفل سافلين، من حيث التضيق
الشديد، والآلام المتراكمة، وشبه الشياطين، التي يرسلها الله سبحانه وتعالى عليه،

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢٤-٢٥ .

(٢) قاله ابن القيم. الأمثال في القرآن ص ٣٦.

(٣) سورة الحج، آية: ٣١ .

(٤) تفسير الطبري ١٨٣/١٧ .

وتوزره أزا، وترزعجه، وتقلقه إلى مظان هلاكه - بالطير، التي تخطف أعضائه، وتمزقه كل ممزق، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، وشبه هواه، الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأخبثه - بالريح، التي تهوي به في مكان سحيق^(١).

ولا ريب أن مثل هذه الأمثال تعد من جوامع كلم القرآن، وهي دليل ظاهر على إعجازه اللغوي.

ومن مظاهر إعجاز نظم القرآن براعته في الاستهلال والختم، فقد افتتح القرآن بسورة الفاتحة التي تضمنت الثناء والدعاء، وختم بمثل ما بدء به، بثلاث سور قصيرة: الإخلاص وهي ثناء، والمعوذتان، وهما دعاء.

وهذه البراعة ملحوظة في سوره، فمثلا سورة البقرة افتتحت بتعظيم القرآن؛ ليكون مدخلا لتقسيم الناس في موقفهم منه إلى ثلاث طوائف: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. ثم بعد أن تناولت معظم الأحكام الشرعية، وفرضتها، تختم السورة بالإشادة بالمؤمنين؛ لكمال خضوعهم لحكم الله ورسوله.

ومثل آخر: سورة يوسف، افتتحت بالتنويه بالقرآن العربي المبين، وبيان أن قصصه أحسن القصص على الإطلاق، ثم شرعت الآيات تحكي قصة يوسف عليه السلام، كنموذج لهذا القصص، ثم ختمت السورة بما بُدئت به، بتعظيم القرآن، وقصصه، وبيان مغزاها.

وخلاصة القول: لقد جاء نظم القرآن على أساليب أبدع مما كان يعهده العرب وأتقن وأحكم وأعجب، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ أَيْنَهُ ثُمَّ قُضِلَتْ مِنْ

(١) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم ٢٣٤/١.

لَدُنَّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾. ﴿أُحْكِمَتْ﴾ أي: أتقنت وأحسننت، بصدق أخبارها، وعدل أوامرها ونواهيها، وفصاحة ألفاظها وبهاء معانيها، ﴿ثُمَّ قُضِلَتْ﴾ أي: ميزت، وبيّنت بياناً، هو في أعلى أنواع البيان (٢).

وهذا الإحكام والتفصيل متحقق في جميع القرآن، دون تفاوت، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ (٣)، أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإعجاز، ويصدق بعضه بعضاً، لا يتطرق إليه النقص، وليس فيه تناقض، ولا اختلاف (٤).

قال سعيد بن جبير: ﴿كُنَّا مُتَشَبِهًا﴾ أي: يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، ويدل بعضه على بعض (٥).

" وإذا كان هو الأحسن؛ علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ، وأوضحها، وأن معانيه، أجل المعاني؛ لأنه أحسن الحديث، في لفظه ومعناه، متشابهها في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه؛ حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر؛ رأى من اتفاهه - حتى في معانيه الغامضة - ما يهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم " (٦).

ويقول أبو بكر الباقلاني: " وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب،

(١) سورة هود، آية: ١ .

(٢) انظر: تفسير السعدي ص ٣٧٦ .

(٣) سورة الزمر، آية: ٢٣ .

(٤) انظر: تفسير البغوي ٧٦/٤، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ١٣٦/١ .

(٥) تفسير الطبري ٢١٠/٢٣ .

(٦) قاله السعدي في تفسيره ص ٧٢٢ .

من الآيات الطويلة، والقصيرة؛ فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد، لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس، عند إعادة ذكر القصة الواحدة، تفاوتاً بينا، ويختلف اختلافاً كبيراً، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت^(١).

وبعد: فقد تبين بجلاء أن إعجاز القرآن اللغوي ظاهر في وجوه كثيرة: ظاهر في كلمات القرآن، وفي جملة، وفي نظمه، وفي آياته، وسوره. كما تبين أن جوامع كلم القرآن - سواء كانت في كلماته، أو جملة، أو آياته، أو سوره - هي من أعظم الشواهد الدالة على إعجازه اللغوي.

(١) إعجاز القرآن ص ٣٧، وفيه اختصار.

الفصل الثاني

شواهد الإعجاز في جوامع كلم القرآن

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شواهد الإعجاز في السورة الجامعة

المبحث الثاني: شواهد الإعجاز في الآية الجامعة

المبحث الثالث: شواهد الإعجاز في الجملة الجامعة

المبحث الرابع: شواهد الإعجاز في اللفظ الجامع

وفيه أربعة أنواع:

الأول: شواهد الإعجاز في المصطلح القرآني الجامع

الثاني: شواهد الإعجاز في اللفظ المشترك المحمول على معانيه

الثالث: شواهد الإعجاز في اللفظ المستعمل في حقيقته ومجازه

الرابع: شواهد الإعجاز في اللفظ الذي ترادفت في بيانه أقوال المفسرين

مدخل

إذا كان الفصل الأول من هذا البحث بمثابة المقدمة النظرية التي كشفت عن المعنى المراد بجوامع الكلم وتعريف الكلمة الجامعة وأقسامها وصلتها بالإعجاز اللغوي في القرآن؛ فإن هذا الفصل هو نتيجة هذا البحث وثمرته ومقصوده؛ فهو مشتمل على الشواهد التي تبرهن على أن هذا النوع من الإعجاز ظاهر في القرآن، غاية الظهور في جوامع كلمه، على اختلاف أنواعها، وسيتم تناول هذه الشواهد على النحو التالي:.

- شواهد الإعجاز في السورة الجامعة

- شواهد الإعجاز في الآية الجامعة

- شواهد الإعجاز في الجملة الجامعة

- شواهد الإعجاز في اللفظ الجامع

وهذا اللفظ يرد في القرآن على عدة أنواع، أهمها: المصطلح القرآني الجامع، واللفظ المشترك المحمول على معانيه، واللفظ المستعمل في حقيقته ومجازه، واللفظ الذي ترادفت في بيانه أقوال المفسرين.

المبحث الأول

شواهد الإعجاز في السورة الجامعة

تقدم أن الكلمة الجامعة يتعدد إطلاقها، فكما أنها تطلق على اللفظ الواحد، فهي تطلق أيضا على جميع القرآن، وتطلق على السورة الواحدة، والآية الواحدة، والجملة الواحدة.

ولقد جاءت سور القرآن متباينة في الطول والقصر؛ فكان منها السور الطويلة، ومنها ما دون ذلك، ومنها السور القصيرة، التي تميزت بقلّة ألفاظها، وغزارة معانيها؛ فكان إطلاق وصف "السورة الجامعة" على الواحدة منها - إطلاقا صحيحا، وظاهرا.

ويؤيده ما ورد في السنة من وصف لبعض السور القصيرة أن الواحدة منها تعدل ثلث القرآن أو رבעه أو نصفه، كما سيأتي.

ولكي يتضح المقصود؛ أضرب أمثلة بأربع سور قصيرة جامعة، كشواهد على الإعجاز اللغوي في القرآن:

الشاهد الأول: سورة الفاتحة:

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ④﴾ (١).

لقد عظم الله تعالى شأن هذه السورة حين امتن بها على رسوله، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ②﴾ (٢) والمراد بها الفاتحة على القول

(١) سورة الفاتحة، آية: ١-٧ .

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٧ .

الصحيح^(١). وقد جاء تفسيرها هذا على لسان رسول الله ﷺ، فعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ)) رواه البخاري^(٢).

قال الإمام الشنقيطي: "وقيل لها: مثاني؛ لأنها تثنى قراءتها في الصلاة، وقيل لها: سبع؛ لأنها سبع آيات، وقيل لها: القرآن العظيم؛ لأنها هي أعظم سورة" اهـ^(٣).

وسر عظمتها أنها سورة جامعة، فإنها مع وجازتها قد تضمنت أصول القرآن ومقاصده، وكان من أسمائها: أم القرآن وأم الكتاب والأساس، لأنها أصل القرآن، منها بدئ القرآن، وأم الشيء أصله^(٤).

قال الإمام الطبري: "وإنما قيل لها أم القرآن، لتسمية العرب كل جامع أمراً - أو مقدّم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه، هو لها إمام جامع - أمّا"^(٥). وقال برهان الدين البقاعي: "وهي الفاتحة الجامعة على وجازتها جميع معاني القرآن"^(٦).

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن الحسن البصري رحمه الله قال: "أنزل الله عز وجل مائة وأربعة كتب من السماء، أودع علومها أربعة منها: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ١٩٥/٣.

(٢) صحيح البخاري ١٦٢٣/٤ - كتاب التفسير - باب ما جاء في فاتحة الكتاب - حديث رقم ٤٢٠٤.

(٣) أضواء البيان ١٩٥/٣.

(٤) انظر: تفسير البغوي ٤٩/١، وتفسير ابن كثير.

(٥) تفسير الطبري ٥٦/١.

(٦) نظم الدرر ٨٥/١١.

والزبور الفرقان، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة" (١).
وسميت فاتحة الكتاب؛ لأنه يفتح بها في الصلاة، ولأن الله سبحانه افتتح بها كتابه، فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال (٢).

فهذه السورة على إيجازها وقلة ألفاظها قد تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة، فتوحيد الربوبية، دل عليه قوله: ﴿نَبِّ الْأَنْبِيَاءِ﴾، وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة دل عليه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودل عليه أيضا لفظ الجلالة في أول السورة؛ لأن الله هو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة؛ لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد دل عليه قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْأَنْبِيَاءِ﴾ (٣) ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٤) ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ففي الحمد الثناء على الله بصفات الكمال وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه، والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا (٥).

وتضمنت السورة أيضا إثبات النبوات في قوله: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾، فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدا قبل إقامة الحجة عليه، والحجة

(١) شعب الإيمان ٢/٤٥٠، رقم الأثر ٢٣٧١.

(٢) انظر: صحيح البخاري ٤/١٦٢٣ - كتاب التفسير - باب ما جاء في فاتحة الكتاب، وتفسير البغوي

٤٩/١، وتناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ٧٣، والتحرير والتنوير ص ١٣٣/١.

(٣) انظر: الفوائد لابن القيم ١/١٩، وتفسير السعدي ص ٤٠.

إنما قامت برسله وكتبه، ويدل عليها أيضا قوله: ﴿إِيَّاكَ تَبْتُ﴾ وقوله: ﴿أَفِدْنَا
أَصْرَطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ فإن طريق التعبد وما يعبد به الله لا سبيل إلى معرفته إلا
برسله وبيانهم، كما أنه لا سبيل إلى الهداية إلا بالرسل^(١).

وتضمنت إثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿تِلْكَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾، وأن
الجزاء يكون بالعدل؛ لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ تَبْتُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِثُ﴾، وفيهما شفاء من أعظم مرضين يعرضان للقلب فـ ﴿إِيَّاكَ
تَبْتُ﴾ تدفع الرياء، وـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِثُ﴾ تدفع الكبرياء^(٢).

بل إن هذه الآية هي أس هذه السورة وغرضها، وعليها مدار العبودية،
والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في
التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع
معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في
قوله: ﴿إِيَّاكَ تَبْتُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِثُ﴾^(٣).

ويؤيد هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يقول قال
الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدني ما سأل، فإذا قال
العبد: ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى حمدني عبدي، وإذا قال:
﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله تعالى أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿تِلْكَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾
قال مجدني عبدي، وقال مرة فوض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ تَبْتُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِثُ﴾ قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدني ما سأل، فإذا قال: ﴿أَفِدْنَا

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم ٩/١.

(٢) انظر: مدارج السالكين ٥٤/١، وتفسير السعدي ص ٤٠.

(٣) انظر: مدارج السالكين ٧٣/١. وتقدم في ص ٥٨ أن نحو هذا الأثر مروى عن الحسن البصري.

الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٢﴾ قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل ((رواه مسلم ^(١)).

فلما كانت السورة نصفين، والأول - وهو الثناء - يعتبر كالتوطئة للثاني وهو دعاء المسألة بأجل مطلوب، وهو الهداية إلى كمال العبودية، فكأن موضوع السورة ومقصودها قد تمحض لهذا المطلوب.

وأيضاً تضمنت السورة إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرية والجبرية، ودل عليه قوله: ﴿الْحَسْبُ اللَّهِ﴾، فإثبات عموم حمده سبحانه يقتضي أن لا يعاقب عبده على مالا قدرة لهم عليه ولا هو من فعلهم، إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التي فعلوها حقيقة، فهي أفعالهم لا أفعاله، وإنما أفعاله العدل والإحسان والخير، ودل على هذا المعنى أيضاً قوله: ﴿الزَّحِينَ الزَّجِرِ﴾ إذ لا يمكن أن يكون رحماناً رحيماً ويعاقب العبد على مالا قدرة له عليه ولا هو من فعله ^(٢).

بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿أَفَدِينَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنه يعني معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع وضال مخالف لذلك، وبه شبه من المغضوب عليهم أو الضالين ^(٣).

وتضمنت السورة بيان المنهج الوسط الذي تميزت به هذه الأمة في قوله: ﴿أَفَدِينَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٢﴾، وهو منهج النبيين الأخيار والصدّيقين الأبرار، الذي لا غلو فيه ولا جفاء ^(٤).

(١) صحيح مسلم ٢٩٦/١ - كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة - حديث رقم ٣٩٥.

(٢) انظر: مدارج السالكين ٦٥/١.

(٣) انظر: مدارج السالكين ٥٨/١، وتفسير السعدي ص ٣٩.

(٤) انظر: الوسطية في ضوء القرآن الكريم للدكتور ناصر العمر ص ٨٥.

وأكتفي بهذه الإشارات؛ فالمقام ليس مقام بسيط، وإلا فالسورة قد تضمنت من المعاني والدلالات والمسائل ما يثير العجب، فهذا صاحب الإتيان ينقل عن ابن أبي جمرة عن علي عليه السلام أنه قال: لو شئت أن أقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت ^(١).

وهذا الفخر الرازي يقول: "هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة" اهـ ^(٢).

ويقول ابن القيم: "وتالله لا تجد مقالة فاسدة ولا بدعة باطلة إلا وفاتحة الكتاب متضمنة لردها بأقرب الطرق وأصحها وأوضحها، ولا تجد باباً من أبواب المعارف الإلهية وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها إلا وفي فاتحة الكتاب مفتاحه وموضع الدلالة عليه، ولا منزلاً من منازل السائرين إلى رب العالمين إلا وبدايته ونهايته فيها، ولعمرو الله إن شأنها لأعظم من ذلك، وهي فوق ذلك" اهـ ^(٣).

الشاهد الثاني: سورة العصر:

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَيْرٌ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٣ وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ ٤ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ ٥﴾ ^(٤) قال ابن كثير: "وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد إلى مسيلمة في أيام جاهليته، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة

(١) الإتيان للسيوطي ٤٩٠/٢.

(٢) تفسير الرازي ١٥/١.

(٣) زاد المعاد ٣٤٧/٤.

(٤) سورة العصر، آية: ٣-١.

بليغة، فقال: وما هي؟ قال: أنزل عليه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٍ ۝٢﴾ " (١).

فهذا عمرو رضي الله عنه، وهو العربي الأصيل، عندما كان على الكفر وخصما للقرآن، لم يستطع أن يكتم إعجابه ببلاغة القرآن وروعته، وهذا يشير إلى أن هذه السورة ذات الكلمات المعدودة قد تضمنت من المعاني الكثيرة والكبيرة ما يجعلها جديرة بأن تصنف في السور الجامعة التي تبرهن على إعجاز القرآن وبلاغته.

ولذا حُق للإمام الشافعي أن يقول: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتمهم (٢).
وبيان ذلك أن مراتب الكمال أربعة: معرفة الحق، ثم العمل به، ثم تعليمه من لا يحسنه، ثم الصبر على تعلمه والعمل به وتعليمه، فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة بأسلوب القسم؛ لغرض الإبانة عن عظيم شأنها.
والمقسّم به - العصر، وهو الزمان الذي هو محل أفعال العباد وأعمالهم - من مظاهر بدیع التكوين الرباني الدال على عظيم قدرته وسعة علمه، وفيه إشارة إلى عظم شأن المقسم عليه.

أقسم الله تعالى بالعصر ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٍ ۝٢﴾، فحكمم بالخسران على جميع بني آدم، وأكد ذلك بـ **إِنْ وَاللَّامِ**، وبالبغ عندنا نكر كلمة **خُسْرٍ**؛ للتهويل والتعميم والتنويع، واستعمل حرف الجر في، للدلالة على أن الخسر محيط بالإنسان ملازم له، أو كأنه منغمس في الخسران.

لكنه استثنى، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۝٣﴾، وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به، ومن لوازم الإيمان العلم، فهو فرع عنه، لا يتم إلا به، فهذه مرتبة.

(١) البداية والنهاية ٦ / ٣٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٦٣/١.

والمرتبة الثانية: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، والعمل الصالح هنا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة.

والمرتبة الثالثة: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، أي وصى به بعضهم بعضاً، علماً وعملاً، وتعلماً وتعليماً وإرشاداً. والحق كلمة جامعة: تشمل الإيمان، والقرآن، والسنة، والعمل الصالح، واجتناب كبائر المنكرات وصغائرها الظاهرة والباطنة.

والمرتبة الرابعة: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي بجميع أنواعه، ومنها: أنهم صبروا على الحق، ووصى بعضهم بعضاً بالصبر والثبات عليه.

وتجدر الإشارة إلى أن هاتين المرتبتين: التواصي بالحق والتواصي بالصبر تحملان صاحبهما على نشر المعروف وإشاعة الخير والتهذيب على فعل الصالحات، فتراه لشدة محبته للطاعة لا يقتصر على التخلق بها، بل يوصي بها غيره بلسان حاله ومقاله؛ ليكون سبباً في إقامة الطاعات في غيره، وهذا نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه من حيث الإيمان والعمل، ومكملاً لغيره؛ بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل^(١).

قال ابن القيم: "فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره"^(٢).

(١) انظر: ما تقدم في تفسير الطبري ٢٩٠/٣٠، وتفسير الفخر الرازي ٨٥/٣٢، ومفتاح دار السعادة لابن

القيم ٥٦/١، وتفسير السعدي ص ٩٣٤، والتحرير والتنوير ٣١٣/٣٠.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٥٦/١.

وإضافة إلى ما تقدم فإن هذه السورة القصيرة الموجزة لتقرر حقيقة ضخمة، وهي أنه مهما امتد الزمان في جميع الأعصار، فليس للبشرية إلا منهج واحد هو الرابع، وطريق واحد هو سبيل النجاة. هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه، وما عداه فخسار وبوار.

إنه الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. يقول صاحب الظلال: " في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريد الإسلام، وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة. إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار، وتصف الأمة المسلمة - حقيقتها ووظيفتها - في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة.. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله " اهـ ^(١).

الشاهد الثالث: سورة قل هو الله أحد:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ ^(٢).

تعد هذه السورة من أقصر سور المفصل، فهي أربع آيات فقط، وكلماتها معدودة، لكن صدر عن المصطفى ﷺ ما يدل على تميزها وفضلها على غيرها من السور، وأن لها شأنًا عظيمًا:

(١) في ظلال القرآن ٣٩٦٤/٦.

(٢) سورة الإخلاص، آية: ٤-١.

فمن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ))، فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ)) رواه مسلم ^(١).

ومنها حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، قَالَ فَقَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ)) أخرجه أصحاب السنن ^(٢).

ومها حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ((كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)) أخرجه البخاري ^(٣).

غير أن من أهم الأحاديث وأقواها دلالة على المقصود تلك التي نصت على أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا

(١) صحيح مسلم ٥٥٧/١ - كتاب الصلاة - باب فضل قراءة قل هو الله أحد - حديث رقم ٨١٣.

(٢) منهم الترمذي في السنن ٥١٥/٥ - كتاب الدعوات - باب جامع الدعوات - حديث رقم ٣٤٧٥،

وأبو داود في السنن ٧٩/٢ - كتاب الصلاة - باب الدعاء - حديث رقم ١٤٩٣. وصححه الألباني -

انظر: صحيح الزغيب والزهبي ١٣٠/٢ - حديث رقم ١٦٤٠.

(٣) صحيح البخاري ١٩١٦/٤ - كتاب فضائل القرآن - باب فضل المعوذات - حديث رقم ٤٧٢٨.

سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالَّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ)) رواه البخاري في صحيحه.

وفي رواية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: ((أَبْعِجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ))، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا أَيْنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: ((اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ))^(١). ورواه مسلم من حديث أبي الدرداء^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَخْشِدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ))، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثُمَّ دَخَلَ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ إِنِّي أُرَى هَذَا خَيْرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ أَلَا إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ))^(٣).

وقد اختلف العلماء في المراد بقوله: ((ثلث القرآن)) على أقوال، أرجحها حمله على ظاهره، فيقال: هي ثلث باعتبار معاني القرآن؛ لأنه أحكام وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت سورة الإخلاص على القسم الثالث، وهو التوحيد، لاسيما توحيد الأسماء والصفات^(٤). وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم^(٥).

(١) صحيح البخاري ١٩١٥/٤ - كتاب التفسير - باب فضل قل هو الله أحد - حديث رقم: ٤٧٢٦، ٤٧٢٧.

(٢) صحيح مسلم ٥٥٦/١ - كتاب الصلاة - باب فضل قراءة قل هو الله أحد - حديث رقم ٨١١.

(٣) صحيح مسلم ٥٥٧/١ - كتاب الصلاة - باب فضل قراءة قل هو الله أحد - حديث رقم ٨١٢.

(٤) انظر: فتح الباري ٦١/٩.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠٣/١٧، وزاد المعاد لابن القيم ٣١٦/١.

قال القرطبي: "ودل على هذا التأويل ما في صحيح مسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: ((إن الله جل وعز جزء القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن))^(١)، وهذا نص، وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص"^(٢).

وقال ابن حجر: "ويستأنس لهذا بما أخرجه أبو عبيد من حديث أبي الدرداء قال جزء النبي ﷺ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن"^(٣) " (٤).

ومما يؤيد هذا القول ويقويه ما نقل عن أئمة التفسير في تفسيرها ومعاني آياتها.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: أي قل قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: هو وحده الأحد، ومعناه المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل^(٥).

قال ابن كثير: "﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: يعني: هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ولا يُطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله، عز وجل؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله " اهـ^(٦).

(١) صحيح مسلم ٥٥٦/١ - كتاب الصلاة - باب فضل قراءة قل هو الله أحد - حديث رقم ٨١١.

(٢) تفسير القرطبي ٢٤٧/٢٠.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ١٤٤ - باب فضل قل هو الله أحد. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه كما تقدم، ويلاحظ أن التجزئة في رواية أبي عبيد مسندة إلى النبي ﷺ، وفي رواية مسلم مسندة إلى الله تعالى.

(٤) فتح الباري ٦١/٩.

(٥) انظر: تفسير السعدي ص ٩٣٧.

(٦) تفسير ابن كثير ٥٧١/٤.

وذهب بعض المفسرين إلى أنه لا فرق بين الواحد والأحد، بدلالة قراءة ابن مسعود: ((قل هو الله الواحد))^(١).

والأرجح أن بينهما فرقا؛ فإنه لا يوصف بالأحادية غير الله تعالى، لا يقال رجل أحد، ولا درهم أحد؛ كما يقال رجل واحد، ودرهم واحد، وأنت إذا قلت: لا يقاومه واحد جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان، بخلاف قولك لا يقاومه أحد^(٢).

ولهذا أدخل اللام في الصمد، ولم يدخلها في أحد؛ لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحدا في الإثبات مفردا غير مضاف إلا الله تعالى^(٣). قال الأزهري: "والواحد في صفة الله معناه أنه لا ثاني له، ويجوز أن يُنعت الشيء بأنه واحد، فأما أحد فلا يوصف به غير الله؛ لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه"^(٤).

وقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾: فسرهما ابن عباس رضي الله عنهما من طريق علي بن أبي طلحة فقال: "الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد عظم في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والغني الذي قد كمل في غناه والجبار الذي قد كمل في جبروته والعالم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له".

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٣٤٥، وتفسير البغوي ٨/٥٨٨، والكشاف ٤/٨١٧.

(٢) انظر: المفردات للراغب ص ٨، وفتح القدير للشوكاني ٥/٥١٥.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/٢٣٥.

(٤) تهذيب اللغة ٥/١٩٨.

وقال من طريق عكرمة: "الصمد: يعني الذي يصمد الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم".

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "الصمد الذي لا جوف له"، وكذا قال بريدة ومجاهد وغير واحد.

وقال سعيد بن جبير: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

وقال قتادة: "الصمد" الباقي بعد فناء خلقه.

وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد، ففسره بالآية التي بعده، وهي قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ﴾ ^(١).

وليس بين هذه الأقوال اختلاف، بل يبين بعضها بعضا ويكمّله.

نقل ابن كثير عن الحافظ الطبراني في كتاب له اسمه السنة، أنه أورد كثيراً من هذه الأقوال في تفسير "الصمد"، ثم قال ^(٢): "وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا، عز وجل، وهو الذي يُصمَد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والاسم 'الصمد' فيه للسلف أقوال متعددة، قد يظن أنها مختلفة، وليست كذلك، بل كلها صواب، والمشهور منها قولان، أحدهما: أن الصمد هو الذي لا جوف له، والثاني: أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج" ^(٣).

(١) انظر: هذه الأقوال في تفسير الطبري ٣٠/٣٤٦، وتفسير البغوي ٨/٥٨٨، وتفسير ابن كثير ٤/٥٧١،

والدر المنثور للسيوطي ١٥/٧٧٧.

(٢) يعني الطبراني. انظر: تفسير ابن كثير ٤/٥٧١.

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/٢١٤.

وقد أحسن الإمام السعدي حين جمع بين هذه الأقوال، فقال: ﴿اللَّهُ الضَّكُّ﴾ ، أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم؛ لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته، الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ ؛ لكمال غناه، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، لا في أسمائه، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى " اهـ ^(١).

ومعنى قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾: أي لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثل شيء ^(٢).

وبعد هذا البيان لمعاني آيات السورة ودلالاتها أجد أنه قد اتضح بجلاء وجه تسميتها بسورة الإخلاص، وأنها - على قلة ألفاظها - قد جمعت من المعاني الكثيرة الدالة على كمال التوحيد، ما يجعلها جديرة بأن توصف بأنها تعدل ثلث القرآن، وأن تكون شاهدا على السور الجامعة في القرآن.

قال ابن القيم: " فإن في سورة الإخلاص من كمال التوحيد العلمي الاعتقادي وإثبات الأحدية لله المستلزمة نفى كل شركة عنه وإثبات الصمدية المستلزمة لإثبات كل كمال له مع كون الخلائق تصمد إليه في حوائجها أي تقصده الخليفة وتتوجه إليه علويها وسفليها، ونفي الوالد والولد والكفاء عنه - المتضمن لنفي الأصل والفرع والنظير والمماثل - مما اختصت به، وصارت تعدل ثلث القرآن، ففي اسمه الصمد إثبات كل الكمال، وفي نفى الكفاء

(١) تفسير السعدي ص ٩٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/٣٤٧.

التنزيه عن الشبيه والمثال، وفي الأحد نفي كل شريك لذي الجلال، وهذه الأصول الثلاثة هي مجامع التوحيد" اهـ^(١).

الشاهد الرابع: سورة قل يا أيها الكافرون

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾^(٢).

ربما يظن الناظر في سورة الكافرون لأول وهلة أن هناك سورا من قصار المفصل هي أولى بوصف الجامعة من هذه السورة. لاسيما وأنها قد اشتملت على آيات تبدو وكأنها مكررة، وهو مما يتعارض مع الإيجاز الذي يعتبر من أهم سمات السورة الجامعة.

غير أن ما ورد في السنة في شأن هذه السورة يوحي بخلاف هذا الظن، فقد أخرج الحاكم في المستدرك وصححه^(٣)، والطبراني في الكبير^(٤)، واللفظ له، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ تَعْدِلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقْرَأُ بِهِمَا فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ))^(٥).

وقد اختلفت الأقوال في المراد بهذا الربع، فعلمه بعضهم بأن القرآن يشتمل على أحكام الشهادتين وأحوال الناشئين، فهذه السورة عدلت الربع؛ لتضمنها البراءة من الشرك^(٦).

(١) زاد المعاد ٤/ ١٨٠.

(٢) سورة الكافرون، آية: ١-٦.

(٣) المعجم الكبير ١٢/ ٤٠٥ - حديث رقم ١٣٤٩٣.

(٤) المستدرك ٧٥٤/١ - حديث رقم ٧٨/٢٠.

(٥) قال الألباني في صحيح الرغيب ١٤١/١: صحيح لغيره.

(٦) انظر: تحفة الأحوذى للمباركفوري ١٦٦/٨.

وقال الفخر الرازي: " والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرمات، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب، فتكون ربعاً للقرآن والله أعلم" اهـ^(١).
والأقرب أن يقال: الدين مبناه على الشهادتين، وشهادة أن لا إله إلا الله يعبر عنها بالتوحيد، وهو قسمان: توحيد العلم والاعتقاد، وتوحيد الإرادة والقصد، وهو عبادة الله وحده والبراءة من الشرك والمشركون، وسورة الكافرون مشتملة على هذا القسم، فصارت بهذا الاعتبار ربع القرآن. وعليه فهي من السور الجامعة، ويتجلى هذا المعنى أكثر عند استعراض آيات السورة وما تضمنته من دلالات^(٢).

ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ جاء النداء بهذه الصيغة دون "يا أيها الذين كفروا"؛ للدلالة على أن الكفر قد أصبح وصفاً ثابتاً لازماً لهم؛ فحقيق بالموحد البراءة منهم. فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائماً أبداً.

ولهذا جاءت الآية الثانية - وهي قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ - بصيغة النفي الدال على الاستمرار، فهو شامل للحال والمستقبل؛ ليكون في مقابلة الكفر الثابت المستمر المذكور في الآية الأولى.

(١) التفسير الكبير ١٢٧/٣٢.

(٢) انظر: تفسير آيات السورة وما تضمنته من دلالات في بدائع الفوائد لابن القيم ١٤٢/١، وتفسير ابن كثير ٥٦١/٤، وتفسير السعدي ص ٩٣٦.

ثم جاءت الآية الثالثة: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾^(١) على سبيل المقابلة، أي لا تفعلون ذلك، وهو مقتضى توغل صفة الكفر فيهم.

ولما تبرأ من معبوداتهم في الحال والمستقبل، عقب بالآية الرابعة؛ لتأكيد براءته مما يعبدون في الماضي، فقال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ أي لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال: ﴿مَّا عَبَدْتُمْ﴾.

ثم قال في الآية الخامسة على سبيل المقابلة: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائما. وإذا كانت الآية الثالثة دلت على شركهم وعدم إخلاصهم في العبادة؛ فإن هذه الآية دلت على أن ذلك صار وصفا لازما لهم.

وعلى هذا فلا تكرار أصلا، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم، بأوجز لفظ وأخصره وأبينه.

ثم تحتم السورة بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُ كُرْؤُوسٍ وَلِي دِينِ﴾، وهو كقوله تعالى ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكْرَتِهِ﴾^(٢)، وقوله: ﴿أَنْتُمْ بَرِئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) فليست الآية تكرارا للبراءة التي تقدمت؛ فهي قد تضمنت هذه البراءة

(١) ما في قوله عز وجل: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ كالتي قبلها على بابها لغير العاقل؛ لأن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلا للعبادة مستحقا لها، فأتى بـ "ما" الدالة على هذا المعنى، ولو أتى بلفظة "من" لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفا، لا أنه هو جهة العبادة ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلا لأن يعبد تعريف محض أو وصف مقتضى لعبادته. وهذا معنى قول محققي النحلة أن "ما" تأتي لصفات من يعقل.

ونظيره قول تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ النساء ٣ لما كان المراد الوصف وأنه السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده وهو الطيب فتتكح المرأة الموصوفة به أتى بـ "ما" دون "من". انظر: بدائع الفوائد لابن القيم ١/١٤١.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨٤.

(٣) سورة يونس، آية: ٤١.

وأكدتها، وأفادت معنى زائدا، هو مقتضى هذه البراءة، وكأنه قال: إنا اقتسمنا هذا المقسوم بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به، لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به، لا تشرككم به.

ويلاحظ أن هذه السورة قد اشتملت على النفي المحض، وهو ما تميزت به، ولذا جاء في وصفها أنها براءة من الشرك^(١)، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحا؛ فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ براءة محضة، وقوله: ﴿وَلَا أَتَّبِعُ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ إثبات أن له معبودا يعبده وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات، وطابقت قول إمام الحنفية: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ (٢).

ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة "قل هو الله أحد" في سنة الفجر^(٣)، وسنة الطواف^(٤)، وفي السنن أنه كان يوتر بهما^(٥)، فيكونان خاتمة عمل

(١) كما جاء في السنن وغيرها عَنْ فَرْوَةَ بْنِ تَوْفَلٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَتَوْفَلٍ: (اقْرَأْ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتَمِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ). سنن أبي داود ٣١٣/٤ - كتاب الأدب - باب ما يقال عند النوم - حديث رقم ٥٠٥٥. وصححه الألباني في صحيح الترمذي - حديث رقم ٣٦٤٣.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٢٦-٢٧.

(٣) دل عليه ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (رَمَقْتُ الشَّيْءَ ﷺ شَهْرًا فَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ). المسند ٩٤/٢ - حديث رقم ٥٦٩١، وحسن إسناده الترمذي ٢٧٦/٢ - حديث رقم ٤١٧، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند ١٨٦/٥: "إسناده صحيح".

(٤) يدل عليه ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي رُكْعَتَيِ الطَّوَافِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ). صحيح مسلم ٨٨٦/٢ - كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ - حديث رقم ١٢١٨.

(٥) وهذا ثابت من حديث أبي بن كعب. انظر: الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ٤١٩/٣.

الليل، كما كانا خاتمة عمل النهار^(١). والسر في هذا أن هاتين السورتين هما سورتا الإخلاص^(٢)، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد: توحيد العلم والاعتقاد، وتوحيد الإرادة والقصد، ولا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، فسورة "قل هو الله أحد" تضمنت النوع الأول، وهو إثبات صفات الكمال كلها لله تعالى؛ لأنه الأحد الصمد، ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلاً وفرعاً ونظيراً. وسورة قل يا أيها الكافرون قد تضمنت النوع الثاني: وهو أن لا يعبد إلا الله، فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، فانتظمت السورتان نوعي التوحيد.

(١) ويدل عليه ما رواه أحمد وغيره عن ابن عمر قال: (رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً أَوْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَبَعْدَ الْمَغْرِبِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) المسند ٩٥/٢ - حديث رقم ٥٦٩٩، قال أحمد شاكر في تعليقه على المسند ١٩٠/٥: "إسناده صحيح".

(٢) ودل على هذه التسمية ما أخرجه الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكْعَتَيْ الطَّوَافِ بِسُورَتَيْ الْإِخْلَاصِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. سنن الترمذي ٢٢١/٣ - كتاب الحج - باب ما جاء ما يقرأ في ركعتي الطواف - حديث رقم ٨٦٩.

المبحث الثاني

شواهد الإعجاز في الآية الجامعة

لا ريب أن آيات القرآن كلها قد بلغت في تركيبها وبلاغتها درجة الإعجاز.

يبد أن مجموعة من آيات الكتاب المبين قد اشتهرت ببلاغتها، فجاءت على تركيب جمع بين جمال التصوير وحسن العبارة مع قلة الكلمات وكثرة المعاني، مما يجعل الآية الواحدة من هذا النوع جديرة بأن توصف بالجامعة، وأن تكون من شواهد الإعجاز القرآني، وفيما يلي أعرض لعدد من هذه الشواهد.

الشاهد الأول: آية الكرسي

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (١) هذه الآية هي أعظم آية في كتاب الله، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة (٢). وذلك لأنها جمعت جميع أنواع التوحيد.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

(٢) منها حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (يَا أَبَا الْمُثَنِّبِ أُنْذِرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَكْبَرُ) قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَكْبَرُ، قَالَ: (يَا أَبَا الْمُثَنِّبِ أُنْذِرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَكْبَرُ) قَالَ قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: (وَاللَّهُ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا الْمُثَنِّبِ). أخرجه مسلم في صحيحه ٥٥٦/١ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي - حديث رقم ٨١٠.

قال القرطبي: "وإنما كانت أعظم آية؛ لأنها توحيد كلها كما صار قوله ﷺ:
 ((أفضل ما قلته أنا والنبيون من قلبي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له))^(١)
 أفضل الذكر، لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيد" اهـ^(٢).
 لقد اشتملت آية الكرسي على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد
 الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله
 ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة
 في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى.
 فقد أخبر تعالى أنه الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة
 والطاعة والتأله له تعالى؛ لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه. والحي والقيوم
 اسمان كريمان دالان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمن ولزوم،
 فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر
 والعلم والقدرة، ونحو ذلك. وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال
 قدرته فانه القائم بنفسه فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه المقيم لغيره فلا
 قيام لغيره الا باقامته، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب
 العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق
 والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري،
 ولهذا ذهب بعض المحققين إلى أن الحي القيوم هما الاسم الأعظم الذي إذا
 دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ٢١٤/١ - كتاب القرآن - باب ما جاء في الدعاء - حديث رقم ٥٠٠.

قال الألباني في السلسلة الصحيحة - حديث رقم ١٥٠٣: الحديث ثابت بمجموع شواهده.

(٢) تفسير القرطبي ١١١/١.

ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسنة: النعاس.
 كما أن من تمامها ما يدل على كمال غناه بأن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
 أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق
 مدبر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. ولهذا
 قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه،
 فالشفاعة كلها لله تعالى.

ومن لوازم كمال قيوميته سعة علمه، ولذا قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾
 أي: ما مضى من جميع الأمور، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه
 تعالى محيط بتفاصيل الأمور، ما تقدم منها وما تأخر، وما ظهر منها وما بطن،
 وما غاب منها وما حضر، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال
 ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

ومن لوازم قيوميته كمال قدرته الدال على كمال عظمته وسعة سلطانه،
 ولذا قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. وإذا كان هذا حال الكرسي أنه
 يسع السماوات والأرض على عظمتها وعظمة من فيهما، والكرسي ليس
 أكبر مخلوقات الله تعالى، بل العرش أكبر منه، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير
 الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال، وتكع عنها فحول الرجال، فكيف
 بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع،
 والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، ولهذا
 قال: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يثقله حفظهما، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي
 العلي بذاته فوق عرشه، العلي بظهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره؛ لكمال
 صفاته، كما أنه العظيم الذي تتضاءل عند عظمته جيروت الجبابرة، وتصغر في

جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء
الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء،^(١).

الشاهد الثاني:

قال الله تعالى: ﴿يَتَسَرَّالْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِيقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٢).

تعد هذه الآية من أجمع آيات القرآن لخصال الدين الظاهرة والباطنة.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وهذه الآية عظيمة جليلة القدر من أعظم
آي القرآن وأجمعه لأمر الدين " ^(٣).

وهذا المعنى يظهر بجلاء عند النظر في معنى البر في اللغة، وكذلك النظر
في مقصود الآية والغرض منها.

أما البر: فهو اسم جامع لكل خصال الخير، ولكل طاعة يتقرب بها العبد
إلى الله تعالى، وهذا المعنى راجع إلى أصل لفظ البر؛ فهو مشتق من البر -
بفتح الباء، خلاف البحر - الدال على السعة والكثرة، فكان لفظ البر دالا
على التوسع في فعل الخير ^(٤).

-
- (١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧/١٠٩، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفى ص ١٢٤،
وتفسير السعدي ص ١١٠.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٧ .
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/١٣٣.
(٤) انظر: المفردات للراغب ص ٤٠.

وأما مقصود الآية والغرض منها فقد كشف عنه ابن كثير حيث قال: " فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتنال أوامره والتوجه حيثما وجه وإتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه" اهـ^(١).

ومما يؤكد أنها آية جامعة أنها وكما افتتحت بلفظ جامع وهو البر، فإنها ختمت أيضاً بلفظ جامع، وهو لفظ التقوى^(٢).

والتأمل في الآية يجد أنها قد اشتملت حقاً على خصال البر والتقوى الظاهرة والباطنة، وهذا يتبين باستعراض صفات البارين من خلال الآية.

وأول الصفات: ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَ بِكَرِّهَاتِ النَّاسِ وَالَّذِينَ هُمْ يَكْتُمُونَ﴾ وهي القاعدة التي يقوم عليها الدين كله.

والصفة الثانية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَكْتُمُونَ﴾ والآية على حجة ذوي القربى واليتيم والسائلين والسائلين وفي الرقاب، وهذا الإتياء يتطلب اقتلاع جذور الشح ودواعيه من النفس، وتربيتها على بذل المعروف والعطاء بجميع صورته لجميع الناس، وإنما خص المال بالذكر؛ لأنه من أعظم محبوبات النفس، فإذا سارعت إلى بذله، فهي لبذل ما سواه أسرع، وبهذه الخصلة تقوى أواصر الأخوة والمودة بين المؤمنين، وتستأصل أسباب الشحناء والجفاء. ولما كانت هذه الخصلة وثيقة الصلة بالبر قدمها في الذكر على الصلاة والزكاة رغم أنهما أعظم ركنين في

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٨/١. وانظر: التحرير والتنوير ١٠٩/٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١٦٥/٧.

الإسلام بعد الشهادتين. بل جعل القرآن بلوغ البر مرهون بهذا الإيتاء فحسب،
حيث قال تبارك وتعالى: ﴿لَنْ نَّسْأَلَهُمُ الْجَنَّةَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا رَحِمْنَاكُمْ﴾ (١).

والصفة الثالثة: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾، والإقامة لفظ بليغ، فهو يعني الكمال
في أداء الصلاة من جميع الوجوه بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها وسائر
مكملاتها. وعلى قدر إقامة هذه الصلاة وكمالها والعناية بها تكون صلة العبد
بربه وقوتها وكمالها. وبها تزكو النفس وتطهر وتسمو؛ لأن الصلاة تنهى عن
الفحشاء والمنكر وعن كل خلق ذميم.

ولا ريب أن هذه الفريضة هي المقيمة لبقية خصال البر، وهي المغذية لها،
ومن أصلح علاقته بخالقه أصلح الله علاقته بالخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٢)، قال مجاهد: أي
يحبهم ويحببهم إلى خلقه، وقال قتادة عن هرم بن حيان أنه كان يقول: "ما
أقبل عبد بقلبه إلى الله، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم
ورحمتهم" (٣).

والصفة الرابعة: ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾، قال ابن عطية: "وذكر الزكاة هنا
دليل على أن ما تقدم ليس بالزكاة المفروضة" (٤).

والصفة الخامسة: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، وهي صفة جامعة،
يدخل فيها حقوق الله كلها ابتداء، وكذلك حقوق العباد التي أوجبها الله عليهم،
إضافة إلى الحقوق التي قد يلتزمها العبد، كالإيمان والندور، ونحو ذلك. وهذه

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٢) سورة مريم، آية: ٩٦.

(٣) تفسير الطبري ١٦/١٣٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/٢٤٣.

الصفة دليل الإيمان وفقدانها علامة على النفاق، كما أنها تشتمل على فضيلتين: فضيلة فردية، وهي أنها عنوان على كمال النفس، وفضيلة اجتماعية، وهي ثقة الناس بعضهم ببعض^(١).

والصفة السادسة: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ، أي: في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء، ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، وبهذا التفصيل تكون هذه الصفة قد استوعبت أحوال الصابرين؛ لأن الصبر إما صبر على حكم الله القدري، ودل عليه قوله: ﴿فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ، أو صبر على حكم الله الشرعي، ودل عليه قوله: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ، ولا ريب أن الجهاد من أعظم التكاليف مشقة على النفوس، وعدى الصبر في النوع القدري بـ ﴿فِي﴾ ؛ ليشير إلى تمكن الفقر والمرض ممن ابتلي بهما، فصارا كالظرف له، مما يدل على بلوغه الكمال في الصبر، وأتى بـ ﴿وَحِينَ﴾ في الأخير؛ لأن القتال حالة لا تكاد تدوم في أغلب الأوقات. وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ منصوب على الاختصاص، وغير سبكه عما قبله؛ تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيته^(٢).

والصفة السابعة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ، أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، قال أبو العالية: "﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾: تكلموا بالإيمان وحققوه بالعمل"^(٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢١٠/١، وتفسير السعدي ص ٨٣، والتحرير والتنوير ١١٢/٢.

(٢) وإذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فحولف في بعضها الإعراب فقد حولف للافتتان ويسمى ذلك قطعاً؛ لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه. انظر: الكشف ٢٤٥/١، وتفسير ابن كثير ٢١٠/١، وتفسير أبي السعود ١٩٤/١، وروح المعاني للألوسي ٤٨/٢.

(٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ١٧٩/١، وتفسير ابن كثير ٢١٠/١.

والصفة الثامنة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وهو وصف جامع كما تقدم، قال السعدي: " لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمننا ولزومها، لأن الوفاء بالعهد، يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها، كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتقون " اهـ (١).

ويلاحظ أن الخصال التي اشتملت عليها هذه الآية هي في مجملها أمهات مكارم الأخلاق، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن البر والإثم، قال ((البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)) رواه مسلم (٢). فجعل الدين هو حسن الخلق. قال ابن القيم: " فقابل البر بالإثم وأخبر أن البر حسن الخلق والإثم حواز الصدور، وهذا يدل على أن حسن الخلق هو الدين كله " اهـ (٣).

ولا عجب أن يتبوء حسن الخلق هذه المنزلة من الدين، فقد قال ﷺ: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) رواه البيهقي والحاكم من حديث أبي هريرة (٤). فجعل إتمام مكارم الأخلاق غاية بعثته؛ تعظيما لها، وتنويعا بشأنها. وعن سعد بن هشام بن عامر قال: قلت يا أم المؤمنين أنبيئي عن خلق رسول الله ﷺ قالت: ((ألست تقرأ القرآن؟)) قلت: بلى، قالت: (فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن)) رواه مسلم (٥).

(١) تفسير السعدي ص ٨٣.

(٢) صحيح مسلم ١٩٨٠/٤ - باب تفسير البر والإثم - حديث رقم ٢٥٥٣.

(٣) مدارج السالكين ٣٠٦/٢.

(٤) السنن الكبرى ١٩١/١٠ - باب بيان مكارم الأخلاق - حديث رقم ٢٠٥٧١، والمستدرک ٦٧٠/٢ -

حديث رقم ٤٢٢١، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم.

(٥) صحيح مسلم ٥١٢/١ - باب جامع صلاة الليل - حديث رقم ٧٤٦.

ورواه الإمام أحمد بلفظ: أتيت عائشة رضي الله عنها، فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ قالت: ((كان خلقه القرآن أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١). ومعنى الآية: أي وإنك لعلی دين عظيم، كما يقول ابن عباس وسعيد بن جبیر وغير واحد^(٢). وتفسير الخلق بالدين مطابق لقول عائشة رضي الله عنها: ((كان خلقه القرآن))؛ لأن القرآن هو أصل الدين ومادته، والخضوع للقرآن خضوع للدين وكذلك العكس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدا فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقا، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: ((كان خلقه القرآن))، وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانسراح صدر" اهـ^(٣).

الشاهد الثالث:

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْقَمْعَ وَأُمِّرْ يَا أَعْرَفُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٤) إذا كانت الآية السابقة قد جمعت بين أصول العبادات ومكارم الأخلاق، فإن هذه الآية قد تمحضت للدعوة إلى محاسن الأخلاق وبيان المنهج الحق في التعامل مع الخلق على اختلاف طباعهم ومشاربهم، وجمعت على وجازتها أصول مكارم الأخلاق.

قال جعفر الصادق: "ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية"^(٥).

(١) مسند الإمام أحمد ٩١/٦ - حديث رقم ٢٤٦٤٥، قال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٨/٢٩، والدر المنثور ٢٤٣/٨.

(٣) مجموع الفتاوى ٦٥٨/١٠.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٥) تفسير البغوي ٢٢٤/٢.

ومن تدبر هذه الآية حق التدبر علم أنها حقا قد جمعت في ثناياها كل خلق عظيم؛ لأن في أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الأرحام وغيض البصر، وفي الإعراض عن الجاهلين الحلم وتنزيه النفس عن ممارسة السفية وعن منازعة اللجوج، وإنما سمي المعروف معروفا؛ لأن كل نفس تعرفه وكل قلب يطمئن إليه ^(١).

قال عنها صاحب الإتيقان: "... فإنها جامعة لمكارم الأخلاق؛ لأن في أخذ العفو التساهل والتسامح في الحقوق واللين والرفق في الدعاء إلى الدين، وفي الأمر بالمعروف كف الأذى وغيض البصر وما شاكلهما من المحرمات، وفي الإعراض الصبر والحلم والتؤدة " ^(٢).

وقال السعدي: "هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم. وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٥٨٩/١.

(٢) الإتيقان للسيوطي ١٤٧/٢.

بالإعراض عنه وعدم مقابله بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه" اهـ^(١).

الشاهد الرابع:

قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِشْ أِبْلَعِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

قوله: ﴿وَقِيلَ﴾ يعني: بعد ما تناهى أمر الطوفان: ﴿يَتَّزِشْ أِبْلَعِي مَاءَكَ﴾ أي تشرَّبه، ﴿وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي﴾: أمسكي، ﴿وَوِغِيضَ الْمَاءِ﴾ أي نقص ونضب، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: أي فرغ من الأمر وهو هلاك القوم، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ يعني السفينة استقرت على جبل اختلف في تعيينه، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكا لهم^(٣).

وهذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة، كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه^(٤).

قال صاحب الكشف: "ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول؛ للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره" اهـ^(٥).

(١) تفسير السعدي ص ٣١٣.

(٢) سورة هود، آية: ٤٤.

(٣) تفسير البغوي ١٧٩/٤.

(٤) تفسير الرازي ١٨٧/١٧.

(٥) الكشف ٣٧٦/٢.

وتعد هذه الآية عند أهل البلاغة والفصاحة من أعظم الشواهد على إعجاز القرآن؛ لما تضمنته من المعاني والدلالات الكثيرة على قلة ألفاظها. "فقد أمر الله في هذه الآية ونهى وأخبر ونادى ونعت وسمى وأهلك وأبقى وأسعد وأشقى وقص من الأنباء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام" (١).

وقال أبو السعود عقب تفسيره لها: "ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الإعجاز قاصيتها، وملكت من غرر المزايا ناصيتها، وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون، ولعمري إن ذلك فوق ما يصفه الواصفون، فحري بنا أن نوجز الكلام في هذا الباب، ونفوض الأمر إلى تأمل أولي الأبواب، والله عنده علم الكتاب" اهـ (٢).

الشاهد الخامس:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ...﴾" (٤).

وعند الطبراني عن عبد الله بن مسعود: "إن أجمع آية في القرآن حلال وحرام وأمر ونهي ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ...﴾" (٥).

(١) قاله السيوطي في الإتقان ١٤٨/٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٢١٢/٤.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٤) مصنف عبد الرزاق ٣٧١/٣.

(٥) المعجم الكبير ١٣٤/٩ - حديث رقم ٨٦٦١. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٩/٧: "وفيه عاصم بن بهللة وهو ثقة وفيه ضعف وبقي رجاله رجال الصحيح"، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢٣٢/٢ - رقم الأثر ٥٠٥ -

من طريق أبي الضحى، وسنده صحيح، كما يقول ابن حجر في الفتح ٤٧٩/١٠.

وأخرج البيهقي في الشعب بسنده عن الحسن أنه قرأ يوما هذه الآية، ثم وقف، فقال: "إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئا إلا جمعه" (١).

وهذا الوصف الذي تميزت به الآية يمكن تبينه لمن تأمل فيها وتدبرها حق التدبر؛ فإنها قد أمرت بثلاث، هي: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، ونهت عن ثلاث، هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي.

أما المأمور بها، فقد صُدِّرت بالأمر بالعدل، وهو لفظ جامع، شامل لكل ما أوجب الله ورسوله على العبد من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده أداء كاملا، ويعامل الخلق بالعدل التام، ويؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته بالعدل، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي، والرجل راع بالعدل في بيته والمرأة راعية بالعدل في بيت زوجها (٢).

وقد فسر ابن عباس العدل في الآية بشهادة أن لا إله إلا الله (٣). ولا ريب أن التوحيد هو أعظم العدل، كما أن الشرك أعظم الظلم، كما قال تعالى على لسان لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٤) (٥).

(١) شعب الإيمان ١/١٦٢.

(٢) انظر: تفسير السعدي ص ٤٤٧.

(٣) تفسير الطبري ١٤/١٦٣.

(٤) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٥) قال السعدي: "وجه كونه عظيما، أنه لا أقطع وأبشع من سَوَى المخلوق من تراب، بمالك الرقاب، وسَوَى الذي لا يملك من الأمر شيئا، بمن له الأمر كله، وسَوَى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسَوَى من لم ينعم بمثل ذرة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم، ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟". تفسير السعدي ص ٦٤٨.

وأما الإحسان، فهو أيضا لفظ جامع، مشتق من الحسن، وهو في أصل اللغة يعود إلى معنى واحد، وهو الجمال الذي يقابل القبح. والإحسان ضد الإساءة، ويراد به الإفضال والإنعام على الغير، يقال أحسن إلى فلان، أنعم عليه^(١). وأجدر الغير بالإحسان هي النفس، فإذا أتقن المرء فعل نفسه، وجنبها مواطن البوار، فقد أحسن إليها غاية الإحسان.

والإحسان إلى النفس يتحقق بإحسان العمل وتكميله والإخلاص فيه، وهو المراد بقوله ﷺ: ((الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))^(٢).

ويلي ذلك الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، مسلمهم وكافرهم، دون أهل الحرب منهم، المظاهرين بعداوتهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٣)، ومعنى تبرؤهم أي تحسنوا إليهم^(٤). وأعلى مراتب الإحسان إلى الخلق الإحسان إلى المسيء منهم^(٥)، كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿الَّذِينَ يُفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦)، ويؤيده ما رواه البيهقي في الشعب أن جارية لعلي بن الحسين جعلت تسكب عليه الماء؛ ليتهايأ للصلاة، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه، فشجه، فرفع علي بن الحسين

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥٧/٢، والمفردات للراغب ص ١١٩، وتاج العروس للزبيدي ٤١٨/٣٤.

(٢) صحيح البخاري ١٧٩٣/٤ - كتاب التفسير - باب إن الله عنده علم الساعة - حديث رقم ٤٤٩٩،

وصحيح مسلم ٣٧/١ - كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان - حديث رقم ٨.

(٣) سورة المتحنة، آية: ٨.

(٤) تفسير الطبري ٦٥/٢٨، وتفسير ابن كثير ٣٥٠/٤.

(٥) انظر: روح المعاني ٢١٧/١٤.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٣٤.

رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ﴾، فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿الْفَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فقال لها: قد عفا الله عنك، قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال اذهبي فأنت حرة ^(١).

إن أصول وفروع آداب المعاشرة والصحبة وسائر العلاقات المشروعة بين الناس لها راجعة في حقيقتها إلى الإحسان ^(٢).

بل أكثر من ذلك؛ لأن الله كتب الإحسان على كل شيء، فيدخل فيه الإحسان إلى البهيمة عند ذبحها، كما دل عليه حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلِيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ)) ^(٣).

ولما كان أولى الناس بالإحسان هم أولو القربى خصوا بالذكر، فقال تعالى: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾، وذو القربى لفظ عام أيضاً، ولذا فسر ابن عباس وغيره بأن المراد بهم الأرحام، وهذا يشمل جميع القرابة ^(٤).

والإيتاء عام يشمل جميع صنائع المعروف، قال ابن عطية: "﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ لفظ يقتضي صلة الرحم، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة، وتركه مبهماً أبلغ؛ لأن كل من وصل في ذلك إلى غاية وإن علت يرى أنه مقصر" اهـ ^(٥).

(١) شعب الإيمان ٣١٧/٦ - رقم الأثر ٨٣١٧.

(٢) انظر: التحرير لابن عاشور ٢٥٦/١٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ١٥٤٨/٣ - كتاب الصيد والذبائح - باب الأمر بإحسان الذبح - حديث رقم ١٩٥٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١٦٣/١٤، وتفسير ابن كثير ٥٨٣/٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤١٦/٣.

وأما المنهي عنها، فقد صُدِّرت بالنهي عن الفحشاء، وهو اسم جامع لكل عمل أو قول أو اعتقاد تستفظعه الشرائع والفطر؛ لفساده، كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقه والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش^(١).

ثم عطف بالنهي عن المنكر، وهو لفظ جامع أيضا، قال ابن عطية: "والمنكر أعم منه - يعني الفحشاء -؛ لأنه يعم جميع المعاصي والردائل والإذابات على اختلاف أنواعها" اهـ^(٢).

ثم ختمت بالبغي، وأصله: التعدي وبما جاوزة القدر والحد من كل شيء، ويدخل فيه كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض^(٣). وأحسب أن هذا العرض المفصل لتفسير الآية قد برهن على ما سبق تقريره من كونها آية جامعة.

قال الخازن بعد تفسيره لها: "فما من شيء يحتاج إليه الناس في أمر دينهم، مما يجب أن يؤتى أو يترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية"^(٤).

وذكر العز بن عبد السلام أنها اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية، وبين ذلك من خلال كتاب ألفه وسماه شجرة المعارف^(٥). "وقد اهتدى الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى ما جمعته هذه الآية من معاني الخير، فلما استخلف سنة ٩٩ هـ كتب يأمر الخطباء بتلاوة هذه

(١) انظر: التحرير لابن عاشور ١١٣/٨، وتفسير السعدي ص ٤٤٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤١٦/٣. وبعض المفسرين نظر إلى دلالة لفظ المنكر، فحمل معناه على المعاصي التي يستعلن بها أصحابها فينكر عليهم. انظر: تفسير ابن كثير ٥٨٣/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٦٤/١٤، وتفسير السعدي ص ٤٤٧.

(٤) تفسير الخازن ٢٠٥/٤.

(٥) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢٤٨/٨، والسيرة الحلبية ١٥٧/٢، والتحرير لابن عاشور ١١٤/٨.

الآية في الخطبة يوم الجمعة، وتُجعل تلاوتها عوضاً عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات سب علي بن أبي طالب عليه السلام. وفي تلاوة هذه الآية عوضاً عن ذلك السبّ دقيقةً أنها تقتضي التّهي عن ذلك السبّ؛ إذ هو من الفحشاء والمنكر والبغى" (١).

ولا ريب أن هذه الآية من أعظم الشواهد الدالة على إعجاز القرآن. روى البيهقي في دلائل النبوة عن عكرمة أنه قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله فقال له اقرأ علي فقرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال: أعد، فأعاد النبي، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر" (٢).

الشاهد السادس:

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣) قال ابن العربي: "هذه الآية من أعظم آي القرآن فصاحة؛ إذ فيها أمران ونهيان وخبران وبشارتان" (٤).

ونقل القاضي عياض عن الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟ فقالت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية، فجمع في الآية الواحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين (٥).

(١) التحرير والتنوير ١١٥/٨.

(٢) دلائل النبوة ١٩٩/٢.

(٣) سورة القصص، آية: ٧.

(٤) أحكام القرآن ٤٩١/٣.

(٥) الشفا ٣٦٦/١. والمراد بالفصاحة هنا وفي كلام ابن العربي البلاغة. انظر: الاتقان للسيوطي ١٤٨/٢.

والتحرير والتنوير لابن عاشور ٣٥٤/١٠.

والخبران هما قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، وقوله: ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾؛ لأنه يشعر بأنها ستخاف عليه.

والأمران هما قوله: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾، وقوله: ﴿فَأَلْفَيْهِ فِي الْبَرِّ﴾.

والنهيان هما قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾.

والبشارتان هما قوله: ﴿إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿وَجَاءَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وهذه الآية على قلة ألفاظها قد جمعت معاني كثيرة:

فلأمر بإرضاعه يؤذن بجمل طويت، وهي أن الله لما أراد ذلك قدر أن يكون مظهر ما أراده هو الجنين الذي في بطن أم موسى، ووضعت أمه، وخافت عليه اعتداء أنصار فرعون على وليدها، وتحيرت في أمرها، فألهمت، أو أريت بأن ترضعه، وهذا يتضمن أن تخفيه مدة إرضاعه.

وقوله: ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾ يعني إخبارها بأنها ستخاف عليه، ويدخل فيه الخوف عليه من القتل والخوف عليه من عيون فرعون.

كما أن الأمر بإلقائه في اليم يتطلب وضعه في تابوت، كما في آية طه، لكن الآية هنا لم تذكر التابوت؛ إشارة إلى ما ينبغي أن تكون عليه أم موسى من كمال التوكل على الله تعالى والثقة بوعده وعدم التعلق بالأسباب.

وقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾، قال ابن زيد: لا تخافي عليه البحر، ولا تحزني لفراقه، والنهيان يشملان الماضي والمستقبل، فالخوف يكون لما هو متوقع من مكروهه، والحزن يكون لما قد وقع^(١).

وقوله: ﴿إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاءَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: تبشير لها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر، ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا، والجملة تعليل للنهي عن

(١) انظر: تفسير الطبري ٣١/٢٠، ونظم الدرر للبقاعي ٢٤٤/١٤.

الخوف والحزن، وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ وتصديرُها بحرفِ التَّحْقِيقِ؛ للاعتناء بتحقيق مضمونها، أي: إِنَّا فاعلونَ لردِّه وجعلِه من المرسلينَ لا محالةً^(١).

الشاهد السابع:

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٢).

لقد شهد النبي ﷺ لهذه الآية بأنها من جوامع الكلم، فقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ سئل عن الحمر، فقال: ((ما أنزل الله علي فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ((^(٣).

قال ابن حجر: " سماها جامعة؛ لشمولها لجميع الأنواع من طاعة ومعصية، وسماها فاذة لانفرادها في معناها "^(٤).

والتأمل فيها يجد أنها جديرة بهذا الوصف؛ لأنها جاءت عامة وشاملة لأبواب الخير والشر كلها؛ فإذا كان مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، يجازى عليها المرء، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٥)، وقوله: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ (٦)،

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٣/٧، وتفسير السعدي ص ٦١٢.

(٢) سورة الزلزلة، آية: ٧-٨.

(٣) صحيح البخاري ١٨٩٧/٤ - كتاب التفسير - باب تفسير سورة إذا زلزلت الأرض زلزالها - حديث رقم ٤٦٧٨، وصحيح مسلم ٦٨٠/٢ - كتاب الزكاة - باب إثم مانع الزكاة - حديث رقم ٩٨٧.

(٤) فتح الباري ٦/٦٥.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٣٠.

(٦) سورة الكهف، آية: ٤٩.

وقد دلت الآية أيضا على غاية الترغيب في فعل الخير، ولو كان قليلا،
والترهيب من فعل الشر، ولو كان حقيرا^(١).

أخرج الإمام أحمد بسنده عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق إنه أتى
النبي ﷺ، فقرأ عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، قال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها^(٢).

وأكتفي بهذا القدر من الشواهد، والمقام لا يحتمل مزيد بسط في هذا
النوع، وإلا فهناك آيات كثيرة معتبرة في جوامع الآيات:

كقوله الله تعالى: ﴿إِنَّكَ تَبْدُ وَإِنَّكَ تَسْتَعِثُ﴾ (٣) (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥) (٦).

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧) (٨).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ
يَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (٩) (١٠).

(١) انظر: تفسير السعدي ص ٩٣٢.

(٢) المسند ٥/٥٩ - حديث رقم ٢٠٦١٢. وأخرجه الضياء في الأحاديث المختارة ١٣/٨، وقال إسناده صحيح.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٤) انظر: ما قاله ابن القيم في هذه الآية في ص ١٥٥، وما بعدها من كتاب بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن
القيم، جمعه يسري السيد محمد.

(٥) سورة النور، آية: ٥٢.

(٦) ومن أشار إلى أنها من جوامع الآيات ابن حزمي في التسهيل ٧١/٣، والقرطبي في تفسيره ٢٩٥/١٢،
وابن حجر في الفتح ٢٤٨/١٣.

(٧) سورة الأنعام، آية: ١٢٠.

(٨) ومن أشار إلى أنها آية جامعة النيسابوري في تفسيره ١٥٣/٣، وابن كثير في تفسيره ١٦٩/٢.

(٩) سورة النساء، آية: ١٤٤.

(١٠) ومن أشار إلى أنها آية جامعة ابن عاشور في التحرير والتنوير ٦٨/٤.

وقوله: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ^(١) ^(٢).
وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ^(٣) ^(٤).
وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ^(٥) ^(٦).
وقوله: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ ^(٧) ^(٨).
وقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ^(٩) ^(١٠).
وغيرها من الآيات.

-
- (١) سورة النساء، آية: ١١٤ .
(٢) انظر: في تفسيرها وكونها آية جامعة تفسير الرازي ٤٢/١١، وتفسير السعدي ص ٢٠٢.
(٣) سورة الكهف، آية: ٧ .
(٤) انظر: ما قاله ابن عاشور في التحرير ٢٥٧/١٥ في إعجاز هذه الآية..
(٥) سورة النازعات، آية: ٣١ .
(٦) انظر: ما قاله السيوطي في معترك الأقران ٢٩٨/١ حول إعجاز هذه الآية.
(٧) سورة الواقعة، آية: ١٩ .
(٨) انظر: أيضا ما قاله السيوطي في معترك الأقران ٢٩٨/١ حول إعجاز هذه الآية.
(٩) سورة الانشقاق، آية: ١٩ .
(١٠) انظر: ما قاله ابن عاشور في التحرير والتنوير ١٧٨/٣٠ حول إعجاز هذه الآية وما جمعه من معاني.

المبحث الثالث

شواهد الإعجاز في الجملة الجامعة

الجملة: واحدة الجمل، وأجمل الشيء جمعه عن تفرقة^(١). وتقدم عند تعريف الكلمة الجامعة أن من أنواعها الجملة المركبة من ألفاظ يسيرة، الدالة على المعاني الكثيرة.

ونعني بها هنا تلك الجمل المفيدة، الواقعة ضمن آية من آيات القرآن، ولا تستغرق جميع الآية، وتميزت بقلّة ألفاظها وكثرة معانيها، مما يجعلها صالحة لأن تكون من دلائل الإعجاز في القرآن، وفيما يلي استعراض لعدد من هذه الجمل كشواهد للإعجاز القرآني في الجملة الواحدة:

الشاهد الأول:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢).

قال ابن الأنباري: "﴿لِلَّتِي﴾ وصف للجمع"، والمعنى: يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال، وأعظمها: توحيد الله والإيمان به وبرسله والعمل بطاعته^(٣).

وقوله: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ صفة محذوف دل عليه قوله: ﴿يَهْدِي﴾، أي: يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر^(٤).

(١) انظر: لسان العرب ١١/١٢٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٩.

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج ٣/٢٢٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/١٢، وتفسير ابن كثير ٣/٢٧.

(٤) انظر: الكشف ٢/٦٠٨، والتحرير والتنوير ١٤/٤٠.

وقد دلت هذه الجملة الجامعة على شرف القرآن وجلالته وأنه يهدي ويدل ويرشد إلى الأعدل والأعلى والأصوب من العقائد والأعمال والأقوال والأخلاق، فمن وفق إلى التلبس بها كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره^(١).

قال ابن عاشور: "هذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفاراً"^(٢).

وقال الشنقيطي: "هذه الآية الكريمة أجمل الله جلّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدّها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة"^(٣).

ثم طفق رحمه الله يذكر جملاً وافرة من هدايات القرآن للطريق التي هي أقوم؛ بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة؛ تنبيهاً ببعض على الكل من المسائل العظام المتعلقة بأصول الدين وهداياته وحكمه وأحكامه^(٤).

الشاهد الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(٥) تعد هذه الجملة من الكلمات الجامعة الحكيمة كما يقول الباقلاني^(٦).

(١) انظر: تفسير السعدي ص ٤٥٤.

(٢) التحرير والتنوير ٤١/١٤.

(٣) أضواء البيان ١٧/٣.

(٤) وقد تناول الشيخ في ما يقارب الخمسين صفحة جملة من هدايات القرآن المتعلقة: بالتوحيد، وحكم التشريع، وتعظيم الملة، ووحدة الأمة، وأسباب نهوضها. انظر: أضواء البيان ١٧/٣.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

(٦) إعجاز القرآن ص ٦٦. وانظر: فتح الباري لابن حجر ٢٤٨/١٣.

فقد حملت ألفاظها القليلة معاني كثيرة، والعرب تعبر عن هذا المعنى بمثل سائر، فتقول: القتل أنفى للقتل، ولكي يتبين ما في جملة: ﴿أَلْقِصَاصِ حَيَوَةٍ﴾ من إعجاز؛ فليقارن بينها وبين هذا المثل، لنصل في نهاية المطاف إلى أن بين الجملتين من البون والاختلاف كما بين الخالق والمخلوق، فمن ذلك أن قوله: ﴿أَلْقِصَاصِ حَيَوَةٍ﴾ أقل حروفا، فإن حروفه عشرة، مع خلوه من الكلمات المكررة، بخلاف المثل فإن حروفه أربعة عشر مع وجود التكرار في لفظ القتل. ومنها: أن نفي القتل لا يستلزم الحياة، وأما الآية فناصة على ثبوتها، بل هي الغرض من تشريع القصاص.

ومنها أن تنكير قوله: ﴿حَيَوَةٍ﴾ يفيد تعظيما وتكثيرا، مما يدل على أن في القصاص حياة متطاولة، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ﴾^(١)، وكم من حروب في الجاهلية نشبت بسبب قتل رجل واحد من إحدى القبيلتين، فاشتعل طلب الثأر بينهما حتى صار سببا في فناء رجال القبيلتين، فأعظم بالقصاص شرعة ومنهاجا؛ لحفظ المهج وإحياء النفوس، وهذا يكشف عن بلاغة هذه الكلمة: ﴿أَلْقِصَاصِ حَيَوَةٍ﴾ وسعة معناها. وأما المثل فليس كذلك؛ فإن اللام فيه للجنس، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

ومنها أن هذه الجملة القرآنية مطردة بخلاف المثل؛ فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون أدعى له، وهو القتل ظلما، وإنما ينفيه قتل خاص، وهو القصاص، ففيه حياة أبدا.

(١) سورة البقرة، آية: ٩٦ .

ومنها أن الآية اشتملت على مبالغة عظيمة، حيث جعلت أحد الضدين الذي هو الفناء والموت محلا ومكانا لضده الذي هو الحياة، فجعل القصاص كالمنبع للحياة والمعدن لها؛ بإدخال ﴿فِي﴾ عليه.

ومنها أن لفظ القصاص مشعر بالمساواة فهو منبئ عن العدل بخلاف مطلق القتل، فلولا القصاص العادل لفسد العالم وأهلك الناس بعضهم بعضا ابتداء واستيفاء.

ومنها أن جملة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ رادعة عن القتل والجرح معا؛ لشمول القصاص لهما، والحياة أيضا في قصاص الأعضاء؛ لأن قطع العضو ينقص مصلحة الحياة وقد يسرى إلى النفس فيزيلها، وليس المثل كذلك.

ومنها أن في قوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ في أول الآية إشارة إلى العناية بالمؤمنين على الخصوص وأنهم مختصون بهذه الحياة دون غيرهم، وهذا من رحمة الله بهم وإحسانه إليهم^(١).

الشاهد الثالث:

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢) هاتان جملتان جامعتان تكمل إحداهما الأخرى، وقد اشتملتا معا على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بين بعضهم بعضا^(٣). وهذا يتبين بالنظر في مكونات كل جملة:

(١) انظر: ما تقدم من معان لهذه الجملة القرآنية في الكشف ٢٤٨/١، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٧٤/٢٨، وإعلام الموقعين ١٢٢/٢ ومفتاح دار السعادة ٩٧/٢ كلاهما لابن القيم، والإيضاح في علوم البلاغة للقرظي ص ١٧٧، والبرهان للزركشي ٢٢٢/٣، والإتقان للسيوطي ١٤٩/٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) انظر: زاد المهاجر لابن القيم ص ٦.

ففي الجملة الأولى لفظان جامعان، هما: البر، والتقوى، وقد فسرهما ابن عباس هنا بقوله: البر ما أمرت به، والتقوى ما نهيت عنه^(١).

ولذا قال السعدي في تفسيرها: " البر: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكلُّ خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك" اهـ^(٢).

وفي الجملة الثانية لفظان جامعان هما الإثم والعدوان؛ فالإثم يقابل البر، والعدوان يقابل التقوى. فالإثم هنا يراد به ترك ما أمر الله بفعله والعدوان: تجاوز حدود الله وارتكاب ما نهى الله عنه^(٣).

وأما التعاون، فهو لفظ جامع، مشترك في الجملتين، ومعناه التظاهر، وهو أن يجتمع اثنان فأكثر على الأمر الواحد، يقال: تعاونوا على أمر واعتنوا أي أعان بعضهم بعضاً^(٤).

ومصالح العباد لا تقوم إلا بالتعاون فيما بينهم، وصور هذا التعاون كثيرة ومتفاوتة، فمن صوره المحمودة ما أورده النووي في كتابه القيم رياض الصالحين تحت باب سماه: "باب في التعاون على البر والتقوى"^(٥)، فذكر

(١) تفسير الطبري ٦٧/٦.

(٢) تفسير السعدي ص ٢١٨.

(٣) وهذا التفسير هو ما ذهب إليه الطبري في تفسيره ٦٧/٦.

(٤) انظر: المفردات للراغب ص ٣٦٦، ولسان العرب ٢٩٨/١٣.

(٥) رياض الصالحين ص ٩٨.

أحاديث، منها: قول الرسول ﷺ: ((مَنْ جَهَّزَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا)) متفق عليه من حديث زيد بن خالد الجهني^(١).
ومن الصور أيضا قوله ﷺ: ((الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الْأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ وَرَبَّمَا قَالَ يُعْطِي مَا أُمِرَ بِهِ كَامِلًا مُوفِّرًا طَيِّبًا بِهِ نَفْسُهُ فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدَ الْمُتَبَدِّقِينَ)) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري^(٢).
ومنها كذلك حديث عقبة بن عامر ؓ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ الثَّلَاثَةَ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الْجَنَّةَ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ وَالْمُمِدَّ بِهِ وَالرَّامِيَ بِهِ)) أخرجه الإمام أحمد^(٣).
ومن صور التعاون المذموم ما رواه أنس بن مالك ؓ قَالَ: ((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَمْرِ عَشْرَةَ عَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَآكِلَ ثَمَنِهَا وَالْمُشْتَرِيَ لَهَا وَالْمُشْتَرَاةَ لَهَا)) أخرجه الترمذي^(٤).
ومنها أيضا حديث جابر ؓ أَنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيهِ وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ)) أخرجه مسلم^(٥).

- (١) صحيح البخاري ١٠٤٥/٣ - كتاب الجهاد والسير - باب فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير - حديث رقم ٢٦٨٨، وصحيح مسلم ١٥٠٦/٣ - كتاب الإمارة - باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير - حديث رقم ١٨٩٥.
(٢) صحيح البخاري ٥٢١/٢ - كتاب الزكاة - باب أجر الخادم إذا تصدق بأمر صاحبه غير مفسد - حديث رقم ١٣٧١، وصحيح مسلم ٧١٠/٢ - كتاب الزكاة - باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت من بيت زوجها غير مفسدة بإذنه الصريح أو العربي - حديث رقم ١٠٢٣.
(٣) المسند ١٤٤/٤ - حديث رقم ١٧٣٣٨. قال محققه إسناده صحيح، وأخرج الحديث أيضا أصحاب السنن وابن خزيمة والحاكم، وقال الترمذي حسن صحيح. انظر: سنن الترمذي ١٧٤/٤ حديث رقم ١٦٣٧، وفتح الباري ٥٤٥/١.
(٤) سنن الترمذي ٥٨٩/٣ - كتاب البيوع - باب النهي أن يتخذ الخمر خلا - حديث رقم ١٢٩٥. وأخرجه الضياء في المختارة ١٨٢/٦ - حديث رقم ٢١٨٩، وقال: إسناده حسن.
(٥) صحيح مسلم ١٢١٩/٣ - كتاب المساقاة - باب لعن آكل الربا ومؤكله - حديث رقم ١٥٩٨.

ولهذا صارت هاتان الجملتان أصل كبير وقاعدة عظيمة لمسائل كثيرة في باب المعاملات والمصالح المرسلة، لاسيما في العصر الحاضر الذي كثرت فيه النوازل، وأصبح العمل الجماعي والقائم على المؤسسات من سماته. ولو أن المسلمين على اختلاف مستوياتهم وأحوالهم أخذوا بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ للقيت المشروعات الدعوية والاحتسابية والإغاثية والتكافلية وبرامج التنمية والإصلاح ونحوها.. في بلادهم - نجاحا منقطع النظير. ولو أنهم كذلك أخذوا بقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ لما وجدت الجمعيات التنصيرية والمشبوهة والمؤسسات الربوية وبيوت الدعارة ودور الإعلام المنحرفة والقنوات المفسدة للعقائد والأخلاق ونحوها - موقع قدم لها في ديار المسلمين. فالله المستعان.

الشاهد الرابع:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾^(١).

تتناول هذه الجملة الجامعة العدل في القول في كافة أنواعه وصوره في جميع أحوال الناس ومعاملاتهم.

يقول ابن عاشور عند تفسيره لهذه الجملة: "هذا جامع كل المعاملات بين الناس بواسطة الكلام وهي الشهاداة، والقضاء، والتعديل، والتجريح، والمشاورة، والصّلة بين الناس، والأخبار المخيرة عن صفات الأشياء في المعاملات: من صفات المبيعات، والمواجرات، والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان، وكذلك المدائح والشتائم كالقذف، فكل ذلك داخل فيما يصدر عن القول" اهـ^(٢).

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٦٦/٨.

وينبغي أن يكون العدل في القول مع جميع الناس، قريهم وبعيدهم، مؤمنهم وكافرهم، مع الموافقين والمخالفين.

وقد نبه السعدي لهذا عند تفسيره لهذه الجملة، فقال: "﴿فَاعْدِلُوا﴾: في قولكم، بمراعاة الصدق في من تحبون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيبانه، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقاتله من الظلم المحرم. بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها منه" (١).

ويتحقق العدل في القول بأن لا يكون فيه شيء من الاعتداء على حقوق العباد: بإبطالها، أو انتقاصها، أو إخفائها، مثل كتمان عيوب المبيع، أو ادعاء العيوب في الأشياء السليمة، أو الكذب في الأثمان، كأن يقول التاجر كاذباً: أعطيت في هذه السلعة كذا، أو أن هذه السلعة قامت علي بكذا. ويتحقق العدل أيضاً بالتزام الصدق في التعديل والتجريح وإبداء النصيحة في المشاورة، وقول الحق في الصلح، وإذا وعد القائل لا يخلف، وإذا أوصى لا يظلم أصحاب الحقوق، ولا يحلف على الباطل، وإذا مدح أحداً مدحه بما فيه، ويمسك عن الشتم ولو كان حقاً؛ لأن الإمساك هو العدل الذي أمر الله به (٢).

وأما الشهادة والقضاء فأمر العدل فيهما ظاهر، وقد ذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين، في لحظه ولفظه (٣).

(١) تفسير السعدي ص ٢٨٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٦٦/٨.

(٣) انظر: تفسير السعدي ص ٢٨٠.

ومما يضاف إلى المعاني التي جمعتها هذه الجملة البليغة أن في التعليق بأداة الشرط في قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ إشارة إلى أن المرء في سعة من السكوت إن خشي قول العدل، وأما أن يقول الجور والظلم والباطل فليس له سبيل إلى ذلك، والكذب كله ليس من العدل في شيء، على أن من السكوت ما هو واجب^(١).

وأخيرا فإن هذه الجملة الجامعة قد اشتملت ودعت إلى جميع أنواع القول المدحوح وحذرت عن جميع القول المذموم، والفعل داخل كذلك؛ لأن من حرص على العدل في القول فإنه في الفعل أخرى.

يقول الجصاص: " وقد انتظم قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا﴾ مصالح الدنيا والآخرة؛ لأن من تحرى صدق القول في العدل، فهو بتحري العدل في الفعل أخرى، ومن كان بهذه الصفة؛ فقد حاز خير الدنيا والآخرة" ^(٢).

الشاهد الخامس:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ ^(٣).

لما نزلت هذه الجملة الجامعة على المخاطبين بهذا القرآن أول مرة كانت الذلول في أذهانهم تعني هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة وبالفلك التي تمخر البحار. والمذللة أيضا للزرع والجني والحصاد. والمذللة كذلك للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات. وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم الحديث فيما اهتدى إليه حتى اليوم تفصيلاً يكشف عن معاني جديدة لهذه الجملة القرآنية المعجزة.

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٦٦/٨.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١٩٧/٤.

(٣) سورة الملك، آية: ١٥.

فمما يقوله العلم أن هذا الوصف: ﴿ذُلُولًا﴾ الذي يطلق عادة على الدابة، يشير إلى أن هذه الأرض التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة، هي دابة متحركة، وهي في الوقت ذاته ذلول، لا تلقي براكبها عن ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ثم هي دابة حلوب، مثلما هي ذلول!

ويقول العلم أيضا بأن الله جعل الأرض ذلولاً للبشر حين جعل لها جاذبية تشدهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى، كما جعل لها ضغطاً جويّاً، بقدر معين، يسمح بسهولة الحركة فوقها.

كما أن الله جعل الأرض ذلولاً ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح، ولو كانت صخوراً صلدة لتعذر السير فيها، ولتعذر الإنبات. كما أن الله جعل الأرض ذلولاً بأن جعل الهواء المحيط بها محتوياً للعناصر التي تحتاج الحياة إليها، بالنسب الدقيقة التي لو اختلت ما قامت الحياة، وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس.

والله جعل الأرض ذلولاً بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة، ومنها حجم الأرض، وحجم الشمس والقمر، وبعد الأرض عن الشمس والقمر، ودرجة حرارة الشمس، وسمك قشرة الأرض، ودرجة سرعتها، وميل محورها، ونسبة توزيع الماء واليابس فيها، وكثافة الهواء المحيط بها وغيرها من الموافقات^(١).

فانظر كم من المعاني والدلالات التي تضمنتها هذه الجملة القصيرة الجامعة. هذه بعض شواهد الإعجاز القرآني في جملة الجامعة، وهناك جمل أخرى كثيرة تشهد لهذا الإعجاز يصعب حصرها، لكن يمكن أن أشير إلى بعضها:

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/٣٦٣٧.

فمنها قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ^(١) قال ابن كثير: "فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن" ^(٢).

ومنها، قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ^(٣).

قال السعدي: "والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك، ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغيير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرا أو بنيانا خطرا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه، ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي في تركها هلاك للروح والدين" اهـ ^(٤).

ومنها، قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ^(٥).

قال علي بن الحسين بن واقد: "قد جمع الله الطب كله في نصف آية

فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾" ^(٦).

(١) سورة الروم، آية: ١٩.

(٢) تفسير السعدي ص ٩٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٤) تفسير ابن كثير ٤٢٩/٣.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٣١.

(٦) تفسير البغوي ١٥٧/٢. وانظر: معترك الأقران للسيوطي ٢٩٩/١.

ومنها، قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^(١).

جاء في نظم الدرر: " ففيه إشعار بأن الصائم يناله من الخير في جسمه وصحته ورزقه حظ وافر مع عظم الأجر في الآخرة" ^(٢).

ومنها، قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلَيمٍ مَا غَشِيَهُمْ﴾^(٣).

ذكر صاحب الكشف أن هذه الجملة من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة ^(٤).

ومنها، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾^(٥).

قال الرازي: " فقلوه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ كلمة جامعة لجميع مطالب الدنيا والآخرة" ^(٦).

وقال السيوطي: " قال بعضهم: جمع بهاتين اللفظين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه" ^(٧).

ومنها، قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾^(٨).

قال السعدي: " وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك وقتل نفسك وقتل غيرك بعبارة أحصر من قوله: " لا يأكل بعضكم

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٤ .

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥١/٣ .

(٣) سورة طه، آية: ٧٨ .

(٤) الكشف ٧٩/٣ .

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٠١ .

(٦) تفسير الرازي ١٦١/٥ .

(٧) الإنشقاق ١٤٩/٢ .

(٨) سورة النساء، آية: ٢٩ .

مال بعض " و" لا يقتل بعضكم بعضاً" مع قصور هذه العبارة على مال الغير ونفس الغير فقط، مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية" (١).

ومنها، قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّيْتَهُمِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (٢).

قال السيوطي: " قال بعضهم جمع بهاتين اللفظين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه " (٣).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٤).

" أي قولاً صادراً عن كرم ولطف، ويعود بالآخرة إلى القول الجميل الذي يقتضيه حسن الأدب، ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول يا أبتاه ويا أماه، ولا يدعوها بأسمائهما؛ فإنه من الجفاء وسوء الأدب، وليس القول الكريم مخصوصاً بذلك؛ فإنه من باب التمثيل " (٥).

لقد جمع هذا الوصف أنواع القول الجميل الذي يحبه الله ورسوله، المتضمن لمحاسن الصفات، من اللين والركة والشفقة وجبر الخاطر وبسط النفس والرغبة في إدخال السرور لهما.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (٦).

(١) تفسير السعدي ص ١٧٥.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٧١.

(٣) الإتيان ١٤٩/٢.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٥) باختصار من روح المعاني للألويسي ٥٦/١٤.

(٦) سورة الحجر، آية: ٩٤.

قال صاحب الإتقان: " قال ابن أبي الأصبع: المعنى صرح بجميع ما أوحى إليك وبلغ كل ما أمرت ببيانهِ وإن شق بعض ذلك على بعض القلوب فانصدعت والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصريح في القلوب فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبض والانبساط ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار كما يظهر على ظاهر الزجاج المصدوعة فانظر إلى جليل هذه الاستعارة وعظم إيجازها وما انطوت عليه من المعاني الكثيرة"^(١).
وغيرها من الآيات.

(١) الإتقان ١٤٩/٢.

المبحث الرابع شواهد الإعجاز في اللفظ الجامع

يتناول هذا المبحث القسم الرابع من جوامع الكلم في القرآن الدالة على إعجازه، وقد سبق بيان الكلمة الجامعة، كسورة من القرآن، أو آية، أو جملة من آية. وبقي تناول الكلمة الجامعة في القرآن كلفظ واحد.

والتأمل في الكتاب العزيز يلحظ أنه يشتمل على كثير من الألفاظ المحتملة لأكثر من معنى، فتجد اللفظ الواحد ذا معان متعددة، وتكون كلها مرادة، أو يحتملها السياق، دون أن يقع بين تلك المعاني تناقض أو تضاد، وهو ودليل وشاهد على إعجاز القرآن في تلك الألفاظ.

عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء: " لا يفقه العبد كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة" ^(١).

قال السيوطي: " وقد فسر بعضهم بأن المراد أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة، فيحمله عليها، إذا كانت غير متضادة، ولا يقتصر به على معنى واحد" ^(٢).

ويعود اجتماع المعاني المتعددة في اللفظ الواحد دون تعارض بينها - إلى أسباب، لعل من أهمها:

أن يكون اللفظ اسما جامعا في عرف الشارع، حتى أصبح مصطلحا من مصطلحات الشارع، كالعبادة، والبر، والتقوى، ونحوها.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤٢/٦، حديث رقم ٣٠١٦٣، وعبد الرزاق في مصنفه ٢٥٥/١١ - حديث رقم ٢٠٤٧٣. قال أبو عمر بن عبد البر: " هذا حديث لا يصح مرفوعا، وإنما الصحيح فيه إنما هو من قول أبي الدرداء ". جامع بيان العلم وفضله ٤٥/٢. وانظر: عمدة القاري للعيني ٥٥/٢.

(٢) الإتيان ٤٠٩/١.

أو أن يكون اللفظ من الألفاظ المشتركة، التي تحمل معنيين فأكثر.
أو أن يكون معناه دائراً بين الحقيقة والجاز.
أو أن تختلف في معناه أقوال المفسرين اختلاف تنوع، وليس تضاد.
ويمكن اعتبار هذه الأسباب بمثابة أنواع لشواهد الإعجاز القرآني في
اللفظ الجامع، وسأعرض لها بشيء من الإيضاح والتفصيل في أربعة أنواع على
النحو التالي:

النوع الأول: شواهد الإعجاز في الأسماء الجامعة

تقدم تقسيم الألفاظ^(١)، وأن منها أن يكون اللفظ ذا حقيقة شرعية؛ إن كان واضعها هو الشارع، كلفظ الصلاة في العبادة المخصوصة. وقد استعمل الشارع جملة من هذه الألفاظ باعتبارها أسماء جامعة.

فمنها على سبيل المثال: العبادة، البر، التقوى، الإحسان، الإيمان، الإسلام، المعروف، المنكر، الحسنة، السيئة، الإثم، الفحشاء، التوبة، ونحوها، وبعض هذه الأسماء - كالإسلام والإيمان، أو البر والتقوى - يختلف معناها عند الانفراد عنه عند الاقتران^(٢).

ولكي يتضح المقصود أعرض بعض الشواهد للأسماء الجامعة في القرآن:

الشاهد الأول:

العبادة التي أمر الله بها ودعت إليها جميع الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٥).

فالعبادة في هذه الآيات اسم جامع للأقوال والأعمال المشروعة للمكلفين المتعلقة بالقلب والجوارح. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين

(١) انظر: ص ٣٥.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣/٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٥) سورة النحل، آية: ٣٦.

وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله" (١).

وهناك تناسب بين معنى العبادة اللغوي والشرعي؛ إذ أن العبادة في أصل اللغة هي الذل والخضوع، فكان المعنى الشرعي منسجما مع هذا المعنى؛ لأن العبودية لله تعالى: تعني كمال الخضوع والتذلل لله تعالى بخضوع القلب باطنا والجوارح ظاهرا.

الشاهد الثاني:

الإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢).

وكقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣). فالإيمان في الموضعين اسم جامع للأعمال الظاهرة والباطنة، وهو هنا لم يقتز بالعمل الصالح، لكنه داخل في مسماه، فالإيمان إذا أفرد في الذكر في القرآن والسنة يراد به الإيمان بأركانه الستة، ويراد به أيضا العمل الصالح، وأعظمه الأركان الخمسة وير الوالدين والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام، وغيرها من الأعمال، مهما صغرت، كما

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٤٩. وانظر: تفسير السعدي ص ٦٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٧٢.

(٣) سورة يونس، آية: ١٠٣.

جاء في الحديث الصحيح: ((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ^(١). فدل الحديث على أنه يدخل في شعب الإيمان الأعمال الظاهرة، وهي قول اللسان، ومنه قول: لا إله إلا الله، وعمل الجوارح، ومنها إمطة الأذى عن الطريق، والأعمال الباطنة، ومنها شعبة الحياء ^(٢).

وإذا اقترن الإيمان بالعمل الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ^(٣) فيكون المراد به الأعمال الباطنة، ويتقدمها أركان الإيمان الستة، كما جاء في حديث جبريل المشهور ^(٤).

الشاهد الثالث:

البر في مثل قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْهتِكُمْ عَلَيْهِ﴾ ^(٥).

فالبر هنا اسم جامع لكل خصال الخير، ولكل طاعة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى. قال السعدي: "﴿لَنْ نَنَالُوا﴾ أي: تدركوا وتبلغوا ﴿الْبِرَّ﴾ الذي هو

(١) صحيح مسلم ٦٣/١ - كتاب الإيمان - باب بيان عدد شعب الإيمان - حديث رقم ٣٥.

(٢) انظر: الإيمان لابن منده ٢٩٤/١، والإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٩، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٧، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٢٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. صحيح مسلم ٣٧/١ - كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان - حديث رقم ٨.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة؛ ﴿حَقٌّ تَنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ " (١).

وتقدم الحديث عن البر وما بين مدلوله اللغوي والشرعي من تناسب - في مبحث سابق (٢).

الشاهد الرابع:

الإحسان في مثل قوله تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣).

وكقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (٤).

فالإحسان هنا اسم جامع، يشمل جميع أنواع الإحسان؛ فيدخل فيه: الإحسان بالمال، والجاه، والشفاعات، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضا الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، وقضاء حوائج إخوانه المسلمين: من تفريج كرباتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، ونصرة مظلومهم وإعانة ضعيفهم وإغاثة ملهوفهم، ونحو ذلك، ويدخل في الإحسان دخولا أوليا الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو الإحسان بمعناه الخاص، كما عرفه النبي ﷺ في حديث جبريل المتقدم، حين سأله عن الإحسان، فقال: ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) (٥) (٦).

(١) تفسير السعدي ص ١٣٨.

(٢) انظر: ص ٨٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٤) سورة يونس، آية: ٢٦.

(٥) تقدم تخريجه انظر: ص ٩٠.

(٦) انظر: تفسير السعدي ص ٩٠.

قال ابن رجب: " وهذا يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة، وهو استحضار قربهِ، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب خشية والخوف والهيبَة والتعظيم، كما جاء في رواية أبي هريرة رضي الله عنه: ((أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ))^(١)، ويوجب أيضا النصيح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها " ^(٢).

والتناسب بين الإحسان في معناه اللغوي والشرعي ظاهر، كما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٣) ^(٤).

الشاهد الخامس:

التوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٥).

قال الأزهرى: " أصل تَابَ عاد إلى الله ورجع وأتاب، وتابَ الله عليه، أي عاد عليه بالمغفرة " ^(٦).

ولما كانت التوبة في أصلها اللغوي بهذا المعنى: الرجوع إلى الله والإنابة إليه؛ صارت في مصطلح الشارع اسما جامعاً؛ فحقيقتها الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماهما، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق في هذه الآية على فعل المأمور وترك المحذور بها ^(٧).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤٠/١ - كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان... - حديث رقم ١٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٣٥، بتصرف يسير.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٤) انظر: ص ٩٠.

(٥) سورة النور، آية: ٣١.

(٦) تهذيب اللغة ٢٣٦/١٤.

(٧) انظر: تفسير الرازي ٢٤/٣، ومدارج السالكين لابن القيم ٣٠٥/١، وتفسير السعدي ٥٦٦.

قال ابن القيم: "التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه؛ فإذا التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر، والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم، الذي عليه بناؤها، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين؛ إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان؛ لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها " اهـ (١).

الشاهد السادس:

التقوى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهْرٍ﴾ (٢)، وقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَبَّاتٌ﴾ (٣).
 ﴿أَتَقُوا وَعُقِيَ الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٤).

إذا جاء ذكر التقوى في القرآن - كما في هاتين الآتين - مفرداً، غير مقرون بوصف آخر، كالبر، أو الطاعة، أو الإيمان، أو الصبر، ونحوها؛ فإنه يراد به التقوى الجامعة للأعمال الظاهرة والباطنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "اسم التقوى إذا أفرّد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور، قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٠٦. وفيه اختصار.

(٢) سورة القمر، آية: ٥٤.

(٣) سورة الرعد، آية: ٣٥.

على نور من الله ترجو رحمة الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله " اهـ ^(١).

وأما في حال الافتزان، كافتزان التقوى بالبر، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ آلِهِ وَالتَّقْوَىٰ﴾ ^(٢)؛ فإن التقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة، ويقابلها البر؛ فإنه هنا اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين، وتقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في مبحث سابق ^(٣).

الشاهد السابع:

الحسنة والسيئة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ^(٤)، وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٥)، وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ^(٦).

فالحسنة في مثل هذه الآيات: اسم جامع لكل قول أو فعل أو اعتقاد حسن في عرف الشارع، كما أن السيئة هنا: اسم جامع لكل قول أو فعل أو اعتقاد سيء في عرف الشارع ^(٧).

(١) مجموع الفتاوى ١٦٣/٧.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) انظر: ص ٨٠.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٥) سورة القصص، آية: ٨٤.

(٦) سورة فصلت، آية: ٣٤.

(٧) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٣٦٨/٢، ومجموع الفتاوى ٢٣٤/١٤، وتفسير السعدي ص ٧٤٩،

والتحرير والتنوير ٢٩٠/٢٤.

قال السعدي: "الحسنة: اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية... والسيئة: اسم جنس يشمل كل سيئة" اهـ^(١).

الشاهد الثامن:

المعروف والمنكر، كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٢)، وقوله: ﴿يَبْنِي أَعْمَرَ الصَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِيرٌ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾^(٣).

فالمعروف في القرآن عند الإطلاق اسم جامع، يدخل فيه كل خير، كما أن المنكر عند الإطلاق اسم جامع، يدخل فيه كل شر^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "المعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، والمنكر: اسم جامع لكل ما كرهه الله ونهى عنه"^(٥).

الشاهد التاسع:

الفحشاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٦)، وقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧) والفحشاء: اسم جامع لكل عمل أو قول أو اعتقاد تستفظعه الشرائع والفطر؛ لفساده، كما تقدم^(٨).

(١) تفسير السعدي ص ٦١٠

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠ .

(٣) سورة لقمان، آية: ١٧ .

(٤) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٦٢/٧، ٣٤٨/١٥، وانظر: فيما تقدم ص ٦٠.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ١٩/١ .

(٦) سورة النحل، آية: ٩٠ .

(٧) سورة الأعراف، آية: ٢٨ .

(٨) انظر: ص ٩٢ .

النوع الثاني: شواهد الإعجاز في اللفظ المشترك

يعرف علماء العربية المشترك بأنه اللفظ الواحد الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السَّواءِ عند أهل تلك اللغة^(١).

وعند استقراء آيات القرآن والتأمل في معاني الألفاظ المشتركة فيها يلحظ أن كثيرا من هذه الألفاظ تأتي في مواضع من القرآن حاملة لمعانيها المتنوعة التي يحتملها معنى الآية وتتوافق مع سياق الآيات، ولا ريب أن هذا يعد من أعظم شواهد إعجاز القرآن.

ويكشف عن صحة هذا التقرير الشواهد القرآنية الكثيرة التي ورد فيها اللفظ المشترك مرادا به معانيه أو بعضها دون تعارض، وإليك جملة من هذه الشواهد:

الشاهد الأول:

لفظ " فريضة " في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴾^(٢) الفرض: مصدر فرض يفرض، والاسم الفريضة، وهو لفظ مشترك، يأتي على معان، منها: الإيجاب، والعطاء، يقال فرض له في العطاء فرضا، أي قدرا معيناً^(٣).

وأصل الفرض: قطع الشيء الصلب، والحز والتأثير فيه، فتسمية الفرض الذي أوجبه الله بذلك؛ لأن له معالماً وحدوداً، وفيه معنى التقدير، أي القسم المعلوم^(٤).

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ص ٢١٥، والمزهر في علوم اللغة والأدب للسيوطي ص ٢٩٢، وتاج العروس

١٣/١، ومعجم البلاغة العربية للدكتور بدوي طبانة ص ٣٠٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦٠.

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٢/١٢، وتاج العروس ٤٨٥/١٨.

(٤) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٢/١٢، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/٤٨٩، والمفردات للراغب

ص ٣٩٠، والكشاف ٢١١/٣. وذهب بعض المحققين إلى أن حقيقة الفرض في اللغة: التقدير فحسب.

انظر: إغاثة اللفهان ١٠٥/١، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ١٤٤/١.

قال الأزهرى: " الفَرَضُ مصدر كلُّ شيءٍ تَفَرَّضَ، فتوجبه على إنسان، بقدر معلوم، والاسم الفريضة " اهـ^(١).

ولذا جاء استعمال هذا اللفظ المشترك في القرآن في الأغلب بمعنييه: الإيجاب والتقدير، في آن واحد، ومن ذلك قوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ في هذه الآية. قال الطبري: "قوله: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾، يقول جل ثناؤه: قَسَمْتُ قِسْمَهُ الله لهم، فأوجبه في أموال أهل الأموال لهم " اهـ^(٢).

وقال السعدي: " ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾: فرضها وقدرها "^(٣). واستعمال القرآن لهذا اللفظ الجامع شاهد على إعجازه، ومهما أجلت الفكر في ألفاظ العربية، فلن تجد لفظا آخر يمكن أن يؤدي وظيفة هذا اللفظ البليغ الفصيح، أو يقوم مقامه.

الشاهد الثاني:

لفظ " نحلة " في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتَيْنَ نَحْلَةً﴾^(٤) الخطاب في هذه الآية للأزواج، وهو اختيار الطبري، وابن العربي، وجمهور المفسرين، وقيل الخطاب للأولياء، وكان الولي في الجاهلية يأخذ مهر المرأة، ولا يعطيها شيئا، فنهوا عن ذلك، وأمرُوا أن يدفعوا ذلك إليهن، وقيل المراد بالآية المتشاغرون الذين كانوا يتزوجون امرأة بأخرى، فأمرُوا بتسمية المهر في العقد، والقول الأول أظهر؛ لأن الضمائر السابقة واحدة، وتعود بجملتها للأزواج^(٥). والأولى أن يكون الخطاب عاما للأزواج والأولياء^(٦).

(١) تهذيب اللغة ١٢/١٢.

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٦٦.

(٣) تفسير السعدي ص ٣٤١.

(٤) سورة النساء، آية: ٤ .

(٥) انظر: تفسير الطبري ٤/٢٤١، وتفسير الشعلي ٣/٢٤٩، وأحكام القرآن لابن العربي ١/٤١٣، وزاد

المسير لابن الجوزي ٢/١٠، وتفسير القرطبي ٥/٢٣.

(٦) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٨/٢، وتفسير المنار ٤/٣٧٦.

واختلف المفسرون في تفسير قوله: ﴿نَحْلَةً﴾ على أقوال^(١):
عن علي بن أبي طلحة عن بن عباس رضي الله عنه قال: قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ
صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾، يعني بالنحلة المهر.

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: ﴿نَحْلَةً﴾: واجبة.
وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب: الواجب، يقول: لا تنكحها إلا
بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد أن ينكح امرأة بعد النبي ﷺ إلا بصدق
واجب.

وقال مقاتل بن حيان، وقتادة، وابن جريج: ﴿نَحْلَةً﴾: أي فريضة. زاد
ابن جريج: مسماة.

وقال الكلبي والفراء: ﴿نَحْلَةً﴾: عطية وهبة.
وقال أبو عبيدة: ﴿نَحْلَةً﴾: عن طيب نفس.
ونقل الزجاج عن بعض العلماء أنهم قالوا: ﴿نَحْلَةً﴾: أي ديانة. والتقدير:
آتوهن مهورهن ديانة.

هذا ما قاله المفسرون في معنى: ﴿نَحْلَةً﴾، ويمكن إجمالها في خمسة
معاني:

واجبة، فريضة، هبة، ديانة، عن طيب نفس.
وهي لا تخرج عن المعاني التي استعملها العرب في هذا اللفظ^(٢).
ولكن ما السر في استعمال القرآن للفظ: ﴿نَحْلَةً﴾ في هذا الموضع؟

(١) انظر: ما في معاني القرآن للفراء ٢٥٦/١، وتفسير الطبري ٢٤١/٤، ومعاني القرآن للزجاج ١٢/٢،
وتفسير ابن أبي حاتم ٨٦١/٣، وتفسير ابن كثير ٤٥٢/١، وتفسير البغوي ٣٩٢/١، والدر المنثور
٤٣١/٢.

(٢) انظر: تهذيب اللغة ٤٢/٥، وتاج العروس للزبيدي ٤٦١/٣٠.

والإجابة - والله أعلم - أنه لما كانت مقاصد القرآن الكبرى: هداية الناس، وإصلاح علائقهم، وتقويم عوائدهم، وكانت أغراض الآية هي: تحرير المرأة من ظلم الجاهلية وتعسفها، ومن ذلك تقرير أن صداق المرأة حق لها، يحرم انتقاصه بأي وجه، وأن تعظيم هذا الحق من أسباب حسن العشرة؛ اختار لتحقيق هذه الأغراض النبيلة هذا الحرف الجامع المعجز؛ ليستوعب به المعاني الكثيرة، التي لا تتعارض، ويناسبها السياق.

ويمكن حمل: ﴿نَحْلَةً﴾ على معانيه الخمسة المتقدمة، وهي بمثابة أوصاف لهذا اللفظ.

وهناك وجهان في إعراب: ﴿نَحْلَةً﴾^(١):

أحدهما: أنها مصدر في موضع الحال، ويجوز أن تكون حالا من الفاعلين، أي حال كونكم ناحلين، أو تكون حالا من ﴿صَدَقْتِهِنَّ﴾، أي حال كونها منحولة، أو تكون حالا من ﴿نَحْلَةً﴾، أي حال كونهن منحولات. وصح بجيء الحال مفردة وصاحبها جمع؛ لأن المراد بهذا المفرد الجنس الصالح للأفراد كلها.

وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية: آتوا النساء مهورهن حال كونها معلومة المقدار، وهبة من الله لهن، وعبادة واجبة عليكم، طيبة به نفوسكم.

الثاني: يجوز أن تكون ﴿نَحْلَةً﴾ منصوبة على المصدر، والعامل فيها الفعل قبلها؛ لأن معنى آتوهن: انخلوهن، والغرض هو بيان أن نوع الإيتاء نحلة.

وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية: آتوا النساء مهورهن إيتاء معلوم المقدار، ديانة لله تعالى، طيبة به نفوسكم، معتقدين وجوبه عليكم، وأنه هبة من الله لهن.

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري ٣٢٩/١، والتحرير والتنوير ٨٨٩/٤.

الشاهد الثالث:

لفظ " العتيق " في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(١).

العتيق لفظ مشترك، مشتق من العتق، ويطلق عند العرب على القدم، وعلى الحرية، وعلى الكرم والشرف، وعلى الجمال^(٢).

وأما أهل التفسير، فلم تخرج أقوالهم عن هذه المعاني، ولهم في معنى العتيق ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه بمعنى المعتق، وأن البيت أعتق من الجبابرة، ولم يملكه أحد من الناس، وقال بعضهم: أعتق من الغرق زمن الطوفان^(٣).

ويشهد لهذا القول ما أخرجه الترمذي في سننه عن عبد الله بن الزبير قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقَ لِأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ))^(٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(٥)، ثم رواه عن الزهري مرسلًا بنحوه.

ومما يؤيد هذا القول؛ مناسبته لموضوع الآيات التي ورد ضمنها لفظ العتيق؛ لأن فيه تعريضاً بالمشركين؛ إذ كانوا يصدون الناس عن البيت، ويمنعون منه من يشاءون، حتى جعلوا بابه مرتفعاً بدون درج، لئلا يدخله إلا من شاءوا، كما جاء في حديث عائشة أيام الفتح^{(٦) (٧)}.

(١) سورة الحج، آية: ٢٩ .

(٢) انظر: العين للخليل ص ٥٩٩، وتهذيب اللغة ١/١٤٢، وتاج العروس ٢٦/١١٥.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٧/١٥١، وتفسير البغوي ٣/٢٨٥، وتفسير ابن كثير ٣/٢١٩.

(٤) سنن الترمذي ٥/٣٢٤ - كتاب التفسير - باب ومن سورة الحج - حديث رقم ٣١٧٠.

(٥) ضعفه الألباني في الضعيفة (٣٢٢٢).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٧٣/٢ - كتاب الحج - باب فضل مكة وبنائها - حديث رقم ١٥٠٧،

ومسلم في صحيحه ٩٧١/٢ - كتاب الحج - باب نقض الكعبة وبنائها - حديث رقم ١٣٣٣.

(٧) انظر: التحرير والتنوير ١٧/٢٥٠.

الثاني: أن العتيق في الآية معناه القديم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١) (٢).

الثالث: العتيق هنا معناه الشريف الكريم الرائع^(٣).

والذي يظهر أن حمل هذا اللفظ المشترك على معانيه هو الأولى، وهو اللائق ببلاغة القرآن وإعجازه؛ لأن مقصود الآية من هذا الوصف هو التنويه بالبيت، الذي جعل الله الطواف به ركنا من أركان الحج، فاختار القرآن لذلك لفظا لا يسد مسده لفظ آخر؛ لأن العتيق لفظ جامع لما يستحقه البيت من مدح؛ ليكون المعنى: وليطوفوا بالبيت الذي هو أقدم البيوت وأشرفها وأكرمها، المعصوم من تسلط الجبابة عليه؛ لأن الله قد جعله للناس جميعا.

وقد نحا السعدي هذا المنحى في تفسير العتيق، حيث قال: "﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتقد من تسلط الجبابة عليه"^(٤).

ولو فليت اللغة العربية، وفتشت في ألفاظها؛ لم تجد لفظا يمثل بلاغة هذا اللفظ المعجز وفصاحته، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٦ .

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٥١/١٧، وتفسير البغوي ٢٨٥/٣، وتفسير ابن كثير ٢١٩/٣ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١١٩/٤، وابن جزي في التسهيل ٤٠/٣ .

(٤) تفسير السعدي ص ٥٣٦ .

(٥) سورة النساء، آية: ٨٢ .

الشاهد الرابع:

لفظ "أمة" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الشُّرِكِينَ﴾^(١).

جاء هذا اللفظ المشترك في اللغة على معان عدة^(٢):

فالأمة تكون بمعنى الجماعة من الناس، وجاء هذا المعنى في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُوتُ﴾^(٣).

والأمة تكون بمعنى الدين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾^(٤)، وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٥)، قال ابن عباس: أي: دينكم دين واحد^(٦).

والأمة تكون بمعنى الإمام المقصود المقتدى به، كما في آية النحل، محل الاستشهاد.

وتكون بمعنى النعمة والخير.

وتكون أيضا بمعنى القامة، يقال رجل حسن الأمة أي حسن القامة.

وتكون بمعنى البرهة من الزمن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾^(٧).

وذكر صاحب أضواء البيان أن لفظ الأمة استعمل في القرآن أربعة استعمالات: في البرهة من الزمن، وفي الجماعة من الناس، وهو الغالب، وفي الرجل المقتدى به، وفي الشريعة والطريقة^(٨).

(١) سورة النحل، آية: ١٢٠.

(٢) انظر: ها في معاني القرآن للزجاج ٢٨٢/١، وتهذيب اللغة ٤٧٤/٦، والمفردات للراغب ص ١٨.

(٣) سورة القصص، آية: ٢٣.

(٤) سورة الزخرف، آية: ٢٢.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٩٢.

(٦) تفسير الطبري ٨٥/١٧.

(٧) سورة يوسف، آية: ٤٥.

(٨) انظر: أضواء البيان ١٧٣/٢.

وقد اختلف المفسرون في تفسيرهم للفظ الأمة في آية النحل على أقوال: أحدها: أنه الإمام المعلم المقتدى به في الخير، وكذلك كان إبراهيم عليه السلام، قال تعالى في شأنه: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(١)، وهو قول ابن مسعود.

الثاني: أن إبراهيم كان وحده أمة من الأمم؛ بكمال صفاته؛ فقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما يجتمع في أمة، كقول الشاعر:

فليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

الثالث: أنه كان وحده على التوحيد، والناس كلهم على الكفر، وهو قول مجاهد، كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٢)، أي كان الناس على دين واحد، كما قال ابن عباس وغير واحد^(٣).

ولما كان المقام في الآية مقام مدح لإبراهيم عليه السلام؛ فإن الأجدر حمل لفظ أمة على جميع معانيه، التي لا تتعارض، ويسوغ وصف إبراهيم عليه السلام بها.

فيكون المعنى: إن إبراهيم كان أمة: أي كان ذا دين عظيم، هو التوحيد، وكان إماما معلما، مقتدى به في الخير، قد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما يجتمع في أمة.

وبهذا المسلك تجتمع الأقوال وتعمل كلها، وينكشف لنا طرف من إعجاز القرآن في هذا اللفظ الجامع.

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤ .

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٣ .

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢/٢٣٥، وتفسير الرازي ١١/٦ .

الشاهد الخامس:

لفظ " عسعس " في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّيْلٌ إِذَا عَسَعَسَ﴾^(١).

يعد هذا اللفظ عند أهل اللغة من الأضداد، فيطلق على إقبال الليل وإدباره، كما صرح بذلك: قطرب، والخليل، والمبرد، وأبو عبيدة^(٢).

وقال الزجاج: " يقال عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس إذا أدبر، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره " ^(٣).

ومرادده أن العسعسة تتعلق بظلام الليل، حال كونه غير مستحكم، ويكون في أوله وآخره، وهي حال واحدة؛ فكان مسماه واحداً.

ولذا قال الراغب: " ﴿وَأَلَّيْلٌ إِذَا عَسَعَسَ﴾ ، أي أقبل وأدبر، وذلك في مبدأ الليل ومنتهاه، فالعسعسة والعساس رقة الظلام، وذلك في طربي الليل " ^(٤).

وأما المفسرون^(٥)، فقد ذهب ابن عباس رضي الله عنه - في رواية علي بن أبي طلحة والعوفي - إلى أن معنى: ﴿وَأَلَّيْلٌ إِذَا عَسَعَسَ﴾ ، أي أدبر، وهو قول علي رضي الله عنه، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، واختاره الطبري؛ لأن الله قال بعدها: ﴿وَالضُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾^(٦)، فدل بذلك على أن القسم بالليل مدبراً وبالنهار مقبلاً.

(١) سورة التكوين، آية: ١٧ .

(٢) انظر: تهذيب اللغة ٦٢/١، والمحرم الوجيز ٤٤٤/٥، والنهاية في غريب الأثر لابن الأثير ٢٣٦/٣، ولسان العرب ١٣٩/٦.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٢٩٢/٥.

(٤) المفردات ص ٣٣٤.

(٥) انظر: أقوالهم في تفسير الصنعاني ٣٥٢/٣، وتفسير الطبري ٧٩/٣٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٣٤٠٥/١٠، والمعجم الكبير للطبراني ٢٥٢/١٠، وتفسير الثعلبي ١٤١/١٠، وزاد المسير ٤٢/٩، وتفسير ابن كثير ٤٨٠/٤، والدر المنثور ٤٣٣/٨.

(٦) سورة التكوين، آية: ١٨ .

وذهب ابن عباس - في قصة نافع بن الأزرق - إلى أن معنى: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا عَسَسَ﴾، أي أقبل، وهو قول الحسن، وسعيد بن جبير، واختاره ابن كثير، وقال: "كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضياؤه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا بَقِيَ﴾ (١) ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ (٢)، وقال تعالى ﴿وَالضُّحَى﴾ (٣) ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا سَجَى﴾ (٤)، وقال تعالى ﴿فَالَيْقُ الْإَصْبَحُ وَجَعَلَ أَلَيْلَ سَكَنًا﴾ (٥) اهـ (٦).

ولا ريب أن اعتماد الطبري على سياق الآية في ترجيحه الإدبار في معنى ﴿عَسَسَ﴾ مأخذ وجيه، كما أن استدلال ابن كثير بآيات أخرى مشابهة في ترجيح الإقبال وجيه أيضا، وهو من أقوى طرق الترجيح. لكن هل يمكن الجمع بين القولين، وحمل هذا اللفظ المشترك على معنييه؟

هذا هو الأولى، وما قاله أئمة أهل اللغة، كالخليل، والمبرد، والزجاج والراغب يؤيد هذا. فيكون معنى الآية: يقسم الله تعالى بالليل حال إقباله وإدباره، كما يقسم بالصبح إذا أقبل وظهر.

ومن رجح الجمع من أئمة التفسير: البيضاوي، وأبو السعود، والألوسي (٧). ومال إليه ابن كثير، حيث قال: "قال كثير من علماء الأصول: إن لفظة "عسس" تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما" (٨).

(١) سورة الليل، آية: ١-٢.

(٢) سورة الضحى، آية: ١-٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٩٦.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٠.

(٥) انظر: تفسير البيضاوي ٥/٤٥٨، وتفسير أبي السعود ٩/١١٨، وروح المعاني ٣٠/٥٨.

(٦) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٠.

الشاهد السادس:

لفظ "أمرنا" في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(١).

فالفعل "أمر" لفظ مشترك، له عدة معاني^(٢):

منها: أمر، من الأمر، نقيض النهي، وهذا هو المشهور، والأغلب استعمالاً.

ومنها: أمر بمعنى كثر، قال أبو عبيد: "أمرته بالمدّ وأمرته لغتان بمعنى كثرته". وقال أبو زيد: "مُهْرَةٌ مأمورة، هي التي كثر نسلها، يقولون: أمر الله المهرة، أي كثر ولدها".

ومنها: أمر بمعنى أمر، يقال أمره، أي سلطه وجعله أميراً.

وهذه المعاني الثلاثة للأمر قد فسرت بها الآية^(٣):

فعلى المعنى الأول، أخرج الطبري بسنده عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال: بطاعة الله، فعصوا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول في قوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ الآية، قال: أمرنا مترفيها بحق فخالفوه فحق عليهم بذلك التدمير. وهذا التفسير مروى أيضاً عن سعيد بن جبیر.

(١) سورة الإسراء، آية: ١٦.

(٢) انظر: العين ص ٣٨، ومجاز القرآن أبي عبيد ٣٧٣/١، وتهذيب اللغة للأزهري ٢٠٨/١٥، وجمهرة اللغة لابن دريد ١٢٦٠/٣، وتفسير البغوي ١٠٩/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ١٩/٥، وتاج العروس للزبيدي ٦٨/١٠.

(٣) انظر: في تفسيرها بالمأثور تفسير الطبري ٥٥/١٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٢٣٢١/٧، وتفسير ابن كثير ٣٤/٣، والدر المنثور ٢٥٤/٥.

وعلى المعنى الثاني، قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ، يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة الزهري. ويؤيد هذا التفسير قراءة الحسن بالمد: ﴿أَمَرْنَا﴾ ، أي أكثرنا^(١). ويؤيده أيضا حديث زينب رضي الله عنها المتفق عليه حين سألت النَّبِيَّ ﷺ: أَتُهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: ((نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ))^(٢).

وعلى المعنى الثالث، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ، يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾^(٣). وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

ويؤيد هذا التفسير قراءة التشديد: ﴿أَمَرْنَا﴾ ، أخرجها الطبري عن أبي عثمان النهدي وأبي العالية ومجاهد، وأخرج ابن مجاهد عن أبي عمرو البصري أنه قرأها بالتشديد، وروي عن ابن كثير أنه قرأ بها^(٤).

ومن تدبر سياق الآية، وتأمل في هذه المعاني الثلاثة التي دل عليها هذا اللفظ المشترك، ومطابقتها لوجوه التفسير الواردة عن ابن عباس وغيره؛ فسيتهي به النظر إلى إمكانية الجمع بينها، وهذا من دلائل إعجاز القرآن، فيكون معنى الآية عند ربطها بما قبلها: أن الله عز وجل حرم الظلم على نفسه،

(١) انظر: المحتسب لابن جني ٦٠/٢، وتفسير الطبري ٥٥/١٥.

(٢) صحيح البخاري ١٢٢١/٣ - كتاب الأنبياء - باب قصة يأجوج ومأجوج - حديث رقم ٣١٦٨، وصحيح مسلم ٢٢٠٧/٤ - كتاب الفتن وأشرط الساعة - باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج - حديث رقم ٢٨٨٠.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٣.

(٤) انظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٣٧٩، والمحتسب لابن جني ٦١/٢، وتفسير الطبري ٥٥/١٥، وتهذيب اللغة ٢٠٨/١٥.

وقضى أن لا يعذب قرية إلا بعد إقامة الحجة على أهلها؛ بأن يبعث إليهم رسولا؛ يأمرهم وينهاهم، فإذا كتب الله هلاكهم؛ جعل لذلك سبيبا؛ بأن يكثّر المترفون فيها؛ حتى تكون لهم الغلبة والسلطان؛ فيكثّر فسقهم وعصيانهم لأمر الله تعالى، فتحق عليهم سنة الله، ويحل عليهم العذاب، والله أعلم.

الشاهد السابع:

لفظ " اتل " في قوله تعالى: ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِإِتِّسَ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (١).

تلا في اللغة: لفظ مشترك، له معنيان: قرأ، وتبع، فعلى الأول التلاوة: هي قراءة المکتوب أو استعراض المحفوظ (٢).

وغلب استعمال التلاوة في القرآن دون القراءة؛ لما يتضمنه هذا الحرف من بلاغة وفصاحة؛ فهو دال على إقامة حروف القرآن وحدوده. يضاف أن إسناد التلاوة للنبي ﷺ مناسب؛ لكونه أميا لا يقرأ ولا يكتب، كما أن الأمة التي بعث بها وهم العرب قوم غلبت فيهم الأمية (٣).

ولهذا فإن التلاوة المأمور بها في هذه الآية ليست قراءة مجردة، بل فيها المعنيان: القراءة والاتباع؛ لأن المراد هو التقرب إلى الله بالمداومة على قراءة القرآن وحفظه وتدبره وتبعية ألفاظه واتباع أحكامه وهداياته.

قال البيضاوي: ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾: تقربا إلى الله تعالى بقراءته وتحفظا لألفاظه واستكشافا لمعانيه؛ فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بال تكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه (٤).

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٥ .

(٢) انظر: العين ص ١٠٥، وتهذيب اللغة ٢٢٥/١٤، والتحرير والتنوير ٨٠٣/٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٦٧٢/٩.

(٤) تفسير البيضاوي ٣١٨/٤.

وقال أبو السعود: "أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته، فقال: ﴿أَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾" (١).

ويقول السعدي عند تفسيره لهذه الآية: "ومعنى تلاوته: اتباعه بامثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه والاهتداء بهداه وتصديق أخباره وتدبر معانيه وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب علم أن إقامة الدين كلها داخله في تلاوة الكتاب فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة" (٢).

ومن أظهر الآيات الدالة على أن هذا اللفظ المعجز يحمل على معنييه القراءة والاتباع - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾" (٣).

جاء في تفسيرها (٤)، عن ابن عباس وابن مسعود ؓ وغير واحد من المفسرين أن معنى قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: أي يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه.

قال ابن مسعود ؓ: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله. وفي لفظ قال: يتبعونه حق اتباعه.

ومن طريق أخرى قال ابن عباس: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: يتبعونه حق اتباعه.

(١) تفسير أبي السعود ٢١٨/٥.

(٢) تفسير السعدي ص ٦٣٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٢١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٢١٨/١، وتفسير ابن كثير ١٦٤/١، والدر المنثور ٢٧٢/١.

وأخرج الخطيب عن مالك بسند فيه مجاهيل عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، قال: ((يتبعونه حق اتباعه)). وأورده ابن كثير وعقب على علة إسناده، فقال: "إلا أن معناه صحيح" ^(١).

وعاب الله على أهل الكتاب اقتصارهم في تناولهم للكتاب على القراءة فحسب دون الاتباع، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ﴾ ^(٢)، والأمني هي القراءة على قول الأكثرين في تفسير الآية ^(٣)، وهو الأرجح، ويدل عليه آية الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّقَ آلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ^(٤). فقله: ﴿تَمَعَّقَ﴾، أي قرأ، وعليه أكثر المفسرين ^(٥).

الشاهد الثامن:

قوله: ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾ ^(٦).

فقوله: ﴿لَا تَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾ تعليل للمتاركة، أي لأننا لا نحب مخالطة أهل الجهالة بالله وبدينه الحق، وهذا المعنى الأول للجهل، الذي هو نقيض العلم، ويدخل في معنى الجملة أنا لا نحب أيضا أهل خلق الجهل، وهو المعنى الثاني الذي هو نقيض الحلم؛ فاستعمل الجهل كلفظ مشترك في معنييه ^(٧).

(١) تفسير ابن كثير ١/١٦٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٧٨.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٣/١٢٨.

(٤) سورة الحج، آية: ٥٢.

(٥) انظر: زاد المسير ٥/٤٤١.

(٦) سورة القصص، آية: ٥٥.

(٧) انظر: تفسير السعدي ص ٦٢٠، والتحرير والتنوير ٢٠/١٤٦.

والمقام لا يتسع للمزيد؛ فهناك في القرآن ألفاظ أخرى مشتركة، لا يأتي عليها العد، غير أن فيما ذكر من الشواهد كفاية لتحقيق الغرض، والله أعلم. ومما يجدر التنبيه عليه أن هذه الشواهد القرآنية الدالة على إعجاز القرآن في اللفظ المشترك - تعد دليلا أيضا لجمهور أهل اللغة على إمكانية ورود اللفظ المشترك في القرآن مرادا به معانيه أو بعضها في آن واحد.

النوع الثالث: شواهد الإعجاز في اللفظ المستعمل في حقيقته ومجازه

تقدم في مبحث سابق أن الألفاظ تنقسم إلى أربعة أقسام^(١): حقيقية، وعرفية، وشرعية، ومجازية. والذي يعنينا هنا الحقيقة والمجاز.

أما الحقيقة: فهو اللفظ المستعمل في وضعه الأصلي.

وأما المجاز: فهو اللفظ المستعمل في غير موضوعه، على وجه يصح.

فمن ذلك الاشتراك في المعنى المشهور، كاستعارة لفظ الأسد في الرجل الشجاع؛ لاشتهار الشجاعة في الأسد الحقيقي.

ومنها المجاورة، كتسمية المزاودة راوية باسم الجمل الحامل لها؛ لتجاورهما في الأعم الأغلب، وتسمية المرأة ظعينة باسم الجمل الذي تظعن عليه؛ للزومها إياه. ومنها: إطلاقهم اسم الشيء على ما يتصل به كقولهم الخمر محرمة والحرم شربها.

ومنها حذفهم المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْأَقْرَبَةَ﴾^(٢) يعني أهل القرية، وقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾^(٣)، أي: حب العجل.

وكل مجاز له حقيقة في شيء آخر ولا يلزم أن يكون لكل حقيقة مجاز. وتقدم جواز حمل اللفظ على معنیه: الحقيقة والمجاز على وجه يصح. وقد اشتمل القرآن على ألفاظ كثيرة جامعة، تكشف عن بلاغته وإعجازه، كل لفظ منها له حقيقة ومجاز، ويمكن حمله على معنیه الحقيقي والمجازي. وفيما يلي بعض الشواهد:

(١) انظر: روضة الناظر لابن قدامة ١٧٣/١.

(٢) سورة يوسف، آية: ٨٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٩٣.

الشاهد الأول:

قوله: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا
فَنَفْسُكُمُ وَأَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

فمعنى قوله: ﴿رِيحُكَ﴾: قال مجاهد نصرتكم، وقال السدي جراءتكم
وجدكم، وقال مقاتل بن حيان: حدثكم، وقال: النضر بن شميل قوتكم، وقال
الأخفش دولتكم، وهي معان متقاربة. أي تذهب دولتكم وشوكتكم؛ فإن
الريح مستعارة للدولة من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة بها في
هبوبها وجريانها.

وقيل المراد بها الحقيقة؛ فإن النصر لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى،
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادًا
بِالدَّبُورِ))^{(٢) (٣)}.

والأولى حمل اللفظ على معنیه، بأن يكون ذهاب الريح مراداً به ذهاب
القوة، وعدم نصرتهم بالريح.

الشاهد الثاني:

قوله: ﴿رَفَعَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾^(٤).

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٦ .

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٠/١ في كتاب الجمعة - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرتا بالصبا - حديث رقم ٩٨٨،

ومسلم ٦١٧/٢ في كتاب صلاة الاستسقاء - باب في ريح الصبا والدبور - حديث رقم ٩٠٠.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٢٥/٤.

(٤) سورة الرحمن، آية: ٧ .

فالرفع هنا له معنيان: حقيقي، وهو الذي يدل عليه ظاهر اللفظ، ورفع السماء يقتضي خلقها، أي خلقها مرفوعة بلا عمد، كما قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾^(١)، وذكر رفعها؛ لأنه محل العبرة بالخلق العجيب. والمعنى الآخر، مجازي؛ لأن رفع السماء؛ إيدان بسمو منزلتها وشرفها؛ فإن فيها منشأ أحكام الله ومصدر قضائه، وإليها يعرج العمل الصالح والكلم الطيب، وهي مكان الملائكة المسبحة بقُدس الله، إلى غير ذلك مما اختصت به. وفي لفظ الرفع تنبيه على كبرياء الله وعظم ملكه وسلطانه. فالأولى حمل الرفع هنا على معنیه الحقيقي والمجازي؛ فيكون هذا اللفظ قد جمع: خلق السماء، ورفعها، وبيان شرفها^(٢).

الشاهد الثالث:

قوله: ﴿ جَاهِدْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾^(٣).

قال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، وأغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم، وعن مقاتل، والربيع مثله^(٤). وهذا التفسير من ابن عباس وغيره يدل على أن لفظ " الجهاد " في الآية مستعمل في حقيقته وهو جهاد الكفار بالسيف، ومستعمل في مجازه، وهو

(١) سورة لقمان، آية: ١٠.

(٢) انظر: ما ذكر حول هذا الشاهد في تفسير البيضاوي ٢٧٣/٥، وتفسير النسفي ٢٠٠/٤، وتفسير أبي السعود ١٧٧/٨، وروح المعاني للألوسي، والتحرير والتنوير ٢٣٧/٢٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ٧٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١٨٣/١٠، وتفسير ابن كثير ٣٧٢/٢.

جهاد المنافقين باللسان والإغلاظ عليهم بالكلام^(١). فقوله: ﴿جَاهِدْ﴾ لفظ جامع لمعاني الجهاد الحقيقية والمجازية.

الشاهد الرابع:

قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(٢).

سبب نزول الآية:

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾"^(٣).

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، قال: كان أناس من أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون؛ فأمرهم الله بالزاد والنفقة في سبيل الله، وأخبرهم أن خير الزاد التقوى^(٤).

والتزود المأمور به في الآية له معنيان عند المفسرين:

أحدهما: مبني على سبب النزول، وهو المعنى الظاهر لقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾، أي: التزود بالطعام للسفر والحج، وعليه أكثر المفسرين^(٥). فالتزود على هذا المعنى حقيقي.

والمعنى الآخر: مجازي؛ فالمراد بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ هو التزود بالتقوى والعمل الصالح، ودل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. ورجحه ابن عطية^(٦).

(١) انظر: روح المعاني ١٣٧/١٠، والتحرير والتنوير ٢٦٦/١٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٣) صحيح البخاري ٥٤٤/٢ - كتاب الحج - باب قول الله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى -

حديث رقم ١٤٥١.

(٤) الدر المنثور ٥٣١/١.

(٥) انظر: تفسير القرطبي ٤١١/٢.

(٦) المحرر الوجيز: ١٢٥/٢.

والأولى حمل الأمر بالتزود على معنييه الحقيقي والمجازي^(١).

قال ابن القيم: "﴿وَتَكَرَّزُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوَى﴾"، فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن، وهذا من زينة القرآن الباطنة، المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة " اهـ^(٢).

الشاهد الخامس:

قوله: ﴿مَرْفُوعَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفُشِّ مَرْفُوعَةً﴾ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾^(٣). ذكر المفسرون في معنى الفُشُّ هنا قولين^(٤):

الأول: قال علي عليه السلام: ﴿وَفُشِّ مَرْفُوعَةً﴾ على الأسرة. وقال جماعة من المفسرين: بعضها فوق بعض فهي مرفوعة عالية. وعلى هذا القول فالرفع هنا حقيقي، موافق لظاهر اللفظ.

الثاني: أراد بالفُشُّ النساء، والعرب تسمى المرأة فراشا على الاستعارة. ومنه قول النبي ﷺ: ((الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ))^(٥).

ومعنى مرفوعة على هذا القول، أي: رفعن بالجمال والفضل على نساء الدنيا، ويؤيد هذا القول أنه قال بعدها: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾، أي خلقناهن خلقا

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢٤٠/١، وتفسير السعدي ص ٩١، والتحرير والتنوير ٢٣٦/٢.

(٢) روضة المحبين ص ٢٣٥.

(٣) سورة الواقعة، آية: ٣٤-٣٥.

(٤) انظر: هما في صحيح البخاري ١٨٥٠/٤، وتفسير البغوي ٢٨٣/٤، وزاد المسير ١٤١/٨.

(٥) متفق عليه. صحيح البخاري ٨٥٢/٢ - كتاب الخصومات - باب دعوى الوصي للميت - حديث

رقم ٢٢٨٩، وصحيح مسلم ١٠٨٠/٢ - كتاب الرضاع - باب الولد للفراش وتوقي الشبهات -

حديث رقم ١٤٥٧. والمعنى أن الولد لمالك الفراش وهو الزوج والمولى، وهذا من مختصر الكلام كقوله

عز وجل واسأل القرية، يريد أهل القرية والمرأة تسمى فراشا لأن الرجل يفتريها. انظر: شرح النووي

على صحيح مسلم ٣٧/١٠، ولسان العرب ٣٢٧/٦.

جديدا، قال ابن عباس: يعني الآدميات العجز الشمط، يقول: خلقناهن بعد الهرم خلقا آخر. وعلى هذا القول فالرفع مجازي.

ويمكن حمل الرفع على معنييه الحقيقي، والمجازي، فتكون الزوجات مرفوعات على السرر، ومرفوعات بفضلهن وجمالهن وطهارتهن من الدنس^(١).

الشاهد السادس:

قوله: ﴿تَبَوَّءُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾^(٢).

والمراد بالذين تبوءوا: الأنصار، والتبوء: النزول في المكان، ومنه المباءة للمنزل، والمراد بالدار المدينة، وهي دار الهجرة، ومعنى تبوئهم الدار والإيمان أنهم اتخذوها منزلا، أي تمكنوا منهما تمكننا شديدا، والتبوء في الأصل إنما يكون للمكان، ولكنه جعل للإيمان على سبيل الاستعارة؛ لتمكنهم فيه؛ تنزيلا للحال منزلة المحل^(٣).

وعليه فالفعل ﴿تَبَوَّءُوا﴾ قد استعمل في معنييه: الحقيقي مسندا إلى الدار، والمجازي مسندا إلى الإيمان^(٤).

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠١/٢٧.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

(٣) انظر: فتح القدير ٢٠٠/٥، وروح المعاني ٥١/٢٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٩٠/٢٨.

النوع الرابع : شواهد الإعجاز في اللفظ الذي ترادفت في بيانه أقوال المفسرين

تقدم أن الترادف في اللغة يراد به الترادف بين الألفاظ التي لها معان متقاربة، ويمكن أن تشترك في معنى واحد، كهلم وأقبل وتعال^(١). والأصل في هذا النوع من الكلمات الجامعة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية عن تفسير السلف للفظ الواحد، وأن اختلافهم فيه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

قال رحمه الله تعالى: " ومن الأقوال الموجودة عنهم - يعني السلف - ويجعلها بعض الناس اختلافاً أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة، لا مترادفة؛ فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن، فإما نادر، وإما معدوم، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد، يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن.

فإذا قال القائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾^(٢) إن المور هو الحركة؛ كان تقريباً؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة.

وكذلك إذا قال: الوحي: الإعلام، أو قيل: أوحينا إليك: أنزلنا إليك، أو قيل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٣)، أي: أعلمنا، وأمثال ذلك، فهذا كله تقريب، لا تحقيق؛ فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام؛ فإن فيه إنزالاً إليهم، وإيحاء إليهم، والعرب تضمن الفعل معنى الفعل، وتعديه تعديته.

ومن قال: لا ريب: لا شك، فهذا تقريب وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة كما قال: ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك))، وفي الحديث: أنه مر

(١) انظر: ص ١٩.

(٢) سورة الطور، آية: ٩.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٤.

بظني حاقف، فقال: لا يريه أحد، فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة، فالريب ضده ضمن الاضطراب والحركة، ولفظ الشك وإن قيل: أنه يستلزم هذا المعنى، لكن لفظه لا يدل عليه.

وكذلك إذا قيل: ﴿ذَلِكَ أَنْ كَتَبَ﴾^(١): هذا القرآن، فهذا تقريب؛ لأن المشار إليه وإن كان واحداً؛ فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة، ولفظ الكتاب يتضمن من كونه مكتوباً مضموماً، ما لا يتضمنه لفظ القرآن، من كونه مقروءاً، مظهراً، بادياً، فهذه الفروق موجودة في القرآن.

فإذا قال أحدهم: ﴿أَنْ تُبَسِّلَ﴾^(٢)، أي: تحبس، وقال الآخر: ترتحن، ونحو ذلك، لم يكن من اختلاف التضاد، وإن كان المحبوس قد يكون مرتحناً، وقد لا يكون؛ إذ هذا تقريب للمعنى، كما تقدم، وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً؛ فان مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين "اهد باختصار"^(٣).

والشواهد الدالة على هذا النوع من الكلم كثيرة في القرآن، غير ما ذكره شيخ الإسلام، أذكر بعضها منها.

- فمنها: ما ذكره المفسرون في معنى: ﴿كَذَّابٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ مِّالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٤).

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿كَذَّابٌ مِّالِ فِرْعَوْنَ﴾: كفعل آل فرعون. وفي رواية قال: كصنيعهم.

(١) سورة البقرة، آية: ٢ .

(٢) سورة الأنعام، آية: ٧٠ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٣/٣٤١ .

(٤) سورة آل عمران، آية: ١١ .

وقال الضحاك: كعمل آل فرعون.

وقال عطاء والربيع: كسنة آل فرعون.

وقال عكرمة ومجاهد والأخفش: كأمر آل فرعون وشأنهم.

وقال النضر بن شميل: كعادة آل فرعون^(١).

فانظر كيف استوعب هذا الحرف القرآني المعجز هذه الألفاظ المترادفة، فكأنه قال: كصنيع آل فرعون وفعلهم وشأنهم وعاداتهم وسنتهم. فأغنى عنها كلها لفظ: دأب، إضافة إلى فصاحته وعذوبته والتثامه مع ألفاظ جملته.

- ومنها: ما جاء في تفسير قوله: ﴿أَزْكُسُهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي آلِ النَّفِيقِينَ فَفَتَنَّا ۖ وَاللَّهُ أَزْكُسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾^(٢).

أصل الركس: رد الشيء مقلوبا.

قال الخليل^(٣): "الركس: قلب الشيء على آخره، أو رد أوله إلى آخره".

وقال: "ارتكس الرجل فيه؛ إذا وقع في أمر بعدما نجا منه".

وقد تنوعت أقوال^(٤) المفسرين وتقاربت في معنى قوله: ﴿أَزْكُسُهُمْ﴾.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿أَزْكُسُهُمْ﴾، يقول أوقعهم. يعني في الكفر والضلال.

وعن عطاء الخراساني عن ابن عباس: ﴿أَزْكُسُهُمْ﴾، قال ردهم. يعني إلى

الكفر والضلال.

وعن قتادة: ﴿أَزْكُسُهُمْ﴾، قال: أهلكهم.

(١) انظر: هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٩٠/٣، وتفسير البغوي ٢٨١/١، والدر المنثور ١٥٨/٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٨.

(٣) العين ص ٣٦٦. وانظر: مفردات الراغب ص ٢٠٢.

(٤) انظر: ها في تفسير ابن كثير ٥٣٤/١، والدر المنثور ٦١٢/٢.

وعن السدي: ﴿أَزَكَّهُمْ﴾، قال أضلهم.

وقال الزجاج: ﴿أَزَكَّهُمْ﴾ في اللغة نكسهم وردهم^(١).

وهكذا يرى المتأمل في هذه الأقوال أنها متقاربة، وتعود إلى أصل واحد. لكنها تكشف عن إعجاز هذا الحرف: أركس، وروعته وكثرة معانيه، وأن ما تقدم من أقوال في تفسيره داخله فيه.

- ومنها ما جاء في تفسير قوله: ﴿الْمُخْتَبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكًا يُذَكِّرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَجَدُّ فَلَهُ اسْلُمُوا وَيَشِرَ الْمُخْتَبِينَ﴾^(٢).

قال مجاهد: ﴿الْمُخْتَبِينَ﴾: المطمئنين.

وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين.

وقال السدي: الوجلين.

وقال عمرو بن إدريس: ﴿الْمُخْتَبِينَ﴾: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وقال الثوري: ﴿الْمُخْتَبِينَ﴾: المطمئنين، الراضين، بقضاء الله، المستسلمين له.

وقال النخعي: ﴿الْمُخْتَبِينَ﴾: المخلصين^(٣).

وبعض هذه الأقوال مستفاد من أوصاف المختبين المذكورة في الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُم وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَجَارِقَتَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٤).

(١) معاني القرآن وإعرابه ٨٨/٢.

(٢) سورة الحج، آية: ٣٤.

(٣) انظر: ما تقدم من أقوال في تفسير المختبين في تفسير الطبري ١٦١/١٧، وتفسير البغوي ٣٨٦/٥،

وتفسير ابن كثير ٢٢٢/٣، وتفسير القرطبي ٥٨/١٢.

والمُحِبِّينَ جمع محبة، وأصله مشتق من الحَبَّتْ، وهو المُطْمَئِنُّ من الأرض، وأُحِبَّت الرجل قصد الحب، أو نزله، نحو أسهل، وأنجد، ثم استعمل الإحبات استعمال اللين والتواضع^(٢).

وهذا المعنى ملحوظ، وظاهر في ما تقدم من أقوال في تفسير: ﴿الْمُحِبِّينَ﴾، لاسيما ما قاله مجاهد والضحاك وقتادة والثوري.

وتأمل كيف تنوعت هذه الأقوال وترادفت في تفسير المحبتين، فحمل هذا الوصف الجامع معاني: التواضع، والاطمئنان، والسماحة، والوجل، والرضا، والاستسلام، والإخلاص لله تعالى. وهو من أعظم الشواهد على عظمة هذا الكتاب وجزالة ألفاظه وكثرة معانيها.

- ومنها أيضا: ما جاء في تفسير قوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: ﴿يُوزَعُونَ﴾: يحبس أولهم على آخرهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى: ﴿يُوزَعُونَ﴾: يدفعون.

وعن ابن جريج: ﴿يُوزَعُونَ﴾، قال الوزعة: الساقة من الملائكة، عليهم السلام، يسوقونهم إلى النار، ويردون الآخر على الأول.

وعن قتادة قال: عليهم وزعة ترد أولهم على آخرهم.

وعن ابن زيد: ﴿يُوزَعُونَ﴾: يساقون.

وعن عكرمة: ﴿يُوزَعُونَ﴾، قال: يحبسون بعضاً على بعض، قال: عليهم وزعة ترد أولهم على آخرهم^(١).

(١) سورة الحج، آية: ٣٥.

(٢) انظر: مفردات الراغب ص ١٤١، وتاج العروس ٣٠٥/٤.

(٣) سورة فصلت، آية: ١٩.

فهذا اللفظ المعجز قد جمع معاني كثيرة، ففيه الكف والسوق والدفع والرد، ولذا لم يف بتفسيره لفظ واحد؛ فتطلب في بيانه هذه الألفاظ العديدة؛ لتفي بالكشف عن هذه المعاني التي تضمنها لفظ: ﴿يُوزَعُونَ﴾.

قال الشنقيطي: "أصل معنى يوزعون، أي: يكف أولهم عن التقدم وآخرهم عن التأخر حتى يجتمعوا جميعاً. وذلك يدل على أنهم يساقون سوقاً عنيفاً، يجمع به أولهم مع آخرهم " (٢).

وهذه المعاني تدل على أن هناك وزعة من الملائكة، لهم وظائف عديدة، تجاه هؤلاء المحشورين.

وتدل أيضاً على كثرة عدد من يوزعون وتباعد أطرافهم (٣). نسأل الله السلامة والعافية.

- ومن الشواهد كذلك: ما جاء في تفسير قوله: ﴿مَرِيحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ (٤).

"مرج" يعود أصل معناه إلى القلق والاضطراب.

قال الأزهرى: "أصلُ المَرَجِ القَلَقُ، يقال مَرَجَ الخَاتِمُ في يدي مَرَجاً إذا قَلِقَ" (٥).

وأقوال المفسرين في تفسيره قوله: ﴿مَرِيحٌ﴾ تحوم حول هذا الأصل وتقاربه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿مَرِيحٌ﴾، يقول مختلف.

(١) انظر: هذه الأقوال في تفسير هذه الكلمة في تفسير الطبري ١٠٦/٢٤، والدر المنثور ٣١٨/٧.

(٢) أضواء البيان ٢٥/٧.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٣٠٢/٦، وروح المعاني ١١٤/٢٤.

(٤) سورة ق، آية: ٥.

(٥) تهذيب اللغة ٥٠/١١. وانظر: الكشف ٣٨٤/٤.

ومن طريق أبي حمزة عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿مَرِيحٌ﴾، فقال:
الشيء المريح: الشيء المنكر المتغير، أما سمعت قول الشاعر:

فَجَآلَتْ فَالْتَمَسْتُ بِهَا حَشَاهَا فخرٌ كَأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيحٌ^(١)

ومن طريق العوفي عن ابن عباس: ﴿مَرِيحٌ﴾، قال: ضلالة.

وعن ابن عباس أيضا أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿مَرِيحٌ﴾، قال
مختلط.

وعن مجاهد: ﴿مَرِيحٌ﴾، قال ملتبس^(٢).

هذا يحمل ما قاله المفسرون في معنى ﴿مَرِيحٌ﴾، وهي أقوال توضح هذا
اللفظ، وتقرب معناه. وتعددتها وتنوعها دليل على إعجاز هذا اللفظ وبلاغته.

ولهذا لم يكتف ابن كثير في تفسيره له بقول واحد، بل جعل مجموع
أقوال المفسرين - رغم ترادفها النسبي - مقربة لمعنى ﴿مَرِيحٌ﴾ وتفسيره له.

قال رحمه الله تعالى: "والمريح: المختلف المضطرب الملتبس المنكر"^(٣).

ويلاحظ أن هناك فروقا لغوية بين هذه التفسيرات المنقولة عن السلف،
وهذا ظاهر؛ فهناك فروق بين الاختلاف والتغير والاختلاط والالتباس. لكنها
تشير بمجموعها إلى ما يشتمل عليه لفظ: ﴿مَرِيحٌ﴾ من غزارة في المعاني
والدلالات.

(١) جاء في تهذيب اللغة ٥١/١١: خوط مريح أي غصن له شعب قصار.

(٢) انظر: ما تقدم من أقوال في تفسير "مريح" في تفسير الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم، والدر المنثور ٥٩٠/٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٢٣/٤.

الخاتمة

أحمد الله عز وجل على ما وفقني إليه في هذا البحث، وألخص ما توصلت إليه من نتائج في النقاط التالية:

- المراد بجوامع الكلم التي بعث بها النبي ﷺ ابتداء هو القرآن.
- ظهر بجلاء أن جوامع الكلم في القرآن من أظهر وجوه الإعجاز اللغوي.
- اشتمل القرآن على أنواع من جوامع الكلم، في سورته، وآياته، وجمله، وألفاظه.
- اشتمل القرآن على عدد من السور القصيرة، الجامعة، الشاهدة على إعجازه.
- كما اشتمل على آيات وجمل كثيرة، جامعة، شاهدة بهذا الإعجاز.
- أن من أظهر شواهد الإعجاز القرآني اشتماله على أسماء شرعية جامعة، تعد من مبتكرات القرآن.
- أن من شواهد الإعجاز أيضا استعمال القرآن لكثير من الألفاظ المشتركة في معانيها المختلفة، دون تعارض.
- ومن الشواهد كذلك استعماله للفظ الواحد في حقيقته ومجازه في آن واحد.
- ومنها أيضا ترادف أقوال المفسرين وتقاربها في تفسير اللفظ الواحد.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

- ١- الإتيان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، دار الفكر - لبنان.
- ٢- الأحاديث المختارة: لأبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة.
- ٣- أحكام القرآن: لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر - لبنان.
- ٤- أحكام القرآن: لأحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٥- الأدب المفرد: لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، دار البشائر الإسلامية - بيروت.
- ٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول: لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: محمد سعيد البدري أبو مصعب، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، دار الفكر - بيروت.
- ٨- أسرار ترتيب القرآن: لعبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام - القاهرة.

٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، ١٤١٥هـ، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت.

١٠- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: لمصطفى صادق الرافعي، ١٤٢٦هـ، المكتبة العصرية.

١١- إعلام الموقعين عن رب العالمين: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ١٩٧٣م، دار الجليل - بيروت.

١٢- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ، دار المعرفة - بيروت.

١٣- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، شركة العبيكان.

١٤- الأمثال في القرآن الكريم: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: إبراهيم محمد، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، مكتبة الصحابة - طنطا - مصر.

١٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر ابن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، دار الفكر - بيروت.

١٦- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لجمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ، دار الجليل - بيروت.

- ١٧- الإيضاح في علوم البلاغة: لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة.
- ١٨- الإيمان لابن منده: لمحمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ١٩- البحر المحيط في أصول الفقه: لبدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: د. محمد محمد تامر، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت.
- ٢٠- بدائع الفوائد: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرين، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة.
- ٢١- البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف - بيروت.
- ٢٢- البرهان في علوم القرآن: لمحمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٣٩١هـ، دار المعرفة - بيروت.
- ٢٣- بيان إعجاز القرآن: لأبي سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الرابعة، دار المعارف - القاهرة.
- ٢٤- تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين - دار الهداية.

٢٥- التبصرة في أصول الفقه: لإبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي
الشيرازي أبو إسحاق، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ، دار الفكر - دمشق.

٢٦- التبيان في إعراب القرآن: لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله
العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢٧- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: لابن
أبي الإصبع المصري، تحقيق الدكتور حفي محمد شرف، ١٩٦٣م،
الناشر: لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة.

٢٨- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: لمحمد عبد الرحمن بن
عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٩- الترادف في اللغة: لحاكم مالك الزيادي، ١٤٠٠هـ، دار الحرية
للطباعة - بغداد.

٣٠- الترغيب في الدعاء: لأبي محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي،
تحقيق: فواز أحمد مرلي، ١٤١٦هـ، دار ابن حزم - بيروت.

٣١- تفسير التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر ابن عاشور، ١٩٨٤م، الدار
التونسية للنشر.

٣٢- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم: لنصر بن محمد بن أحمد
أبو الليث السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر - بيروت.

٣٣- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار: لمحمد رشيد رضا،
١٤١٤هـ، دار المعرفة - بيروت - لبنان.

٣٤- تفسير القرآن العظيم: لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، ١٤٠١هـ، دار الفكر - بيروت.

٣٥- تفسير القرآن العظيم: لعبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي بن أبي حاتم، المكتبة العصرية - صيدا.

٣٦- تفسير القرآن: لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، مكتبة الرشد - الرياض.

٣٧- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٨- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن محمد ابن حسين القمي النيسابوري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٩- تهذيب التهذيب: لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، دار الفكر - بيروت.

٤٠- تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، ١٤٢١هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٤٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لمحمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، ١٤٠٥هـ، دار الفكر - بيروت.

- ٤٣- الجامع الصحيح سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٤٤- الجامع الصحيح: لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت.
- ٤٥- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: لزين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، إبراهيم باجس، الطبعة السابعة ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٤٦- جامع بيان العلم وفضله: ليوسف بن عبد البر النمري، ١٣٩٨هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٤٧- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب - القاهرة.
- ٤٨- جوهرة اللغة: لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، دار العلم للملايين - بيروت.
- ٤٩- الخصائص: لأبي الفتح عثمان ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب - بيروت.
- ٥٠- الدر المنثور: لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، ١٩٩٣هـ، دار الفكر - بيروت.

٥١- دلائل النبوة للبيهقي: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: سيد إبراهيم، ١٤٢٨هـ، دار الحديث - القاهرة.

٥٢- الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: د. محمد جميل غازي، مكتبة المدني - جدة.

٥٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٥٣- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ١٤١٢هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٤- روضة الناظر وجنة المناظر: لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض.

٥٥- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ، دار الفكر - بيروت.

٥٦- زاد المسير في علم التفسير: لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ، المكتب الإسلامي - بيروت.

٥٧- زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت.

٥٨- سر الفصاحة: للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٩- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.

٦٠- سلسلة الأحاديث الضعيفة: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.

٦١- سنن أبي داود: لسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

٦٢- السنن الكبرى: لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٣- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون: لعلي بن برهان الدين الحلبي، ١٤٠٠هـ، دار المعرفة - بيروت.

٦٤- شذور الذهب في معرفة كلام العرب: لعبد الله جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق: عبد الغني الدقر، ١٤٠٤هـ، الشركة المتحدة للتوزيع - سوريا.

٦٥- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: للقاضي بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري، تعليق: أحمد طعمة حلي، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ، دار المعرفة - بيروت.

٦٦- شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي - بيروت.

٦٧- شرح الكوكب المنير: لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار، تحقيق: الدكتور محمد الزحيلي والدكتور نزيه حماد - دار الفكر - دمشق.

- ٦٨- شعب الإيمان: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٦٩- الشفا تعريف حقوق المصطفى: لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ٧٠- الشمائل الشريفة: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: حسن بن عبيد باحبيشي، دار طائر العلم للنشر والتوزيع.
- ٧١- الصحاح: لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ، دار العلم للملايين - بيروت.
- ٧٢- صحيح الترغيب والترهيب: للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- ٧٣- صحيح الترمذي: لمحمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت.
- ٧٤- صحيح مسلم بشرح النووي: لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٥- صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٦- الضعفاء والمتروكين: لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، تحقيق: عبد الله القاضي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

- ٧٧- طبقات الشافعية الكبرى: لتاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ٧٨- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٩- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد ابن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر - بيروت.
- ٨٠- فضائل القرآن: لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: وهي سليمان غاوجي، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، دار الكتب العلمية.
- ٨١- الفوائد: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٨٢- في ظلال القرآن: لسيد قطب، ١٣٩٦هـ، دار الشروق - بيروت.
- ٨٣- القرآن المعجزة الكبرى: للإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ٨٤- كتاب الإيمان: للإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الأرقم - الكويت.
- ٨٥- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ، دار الكتاب العربي - لبنان.
- ٨٦- كتاب التعريفات: للشريف علي بن محمد الجرجاني، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- ٨٧- كتاب السبعة في القراءات: لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي، تحقيق: شوقي ضيف، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، دار المعارف - مصر.

٨٨- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ١٤٠٦هـ، المكتبة العصرية - بيروت.

٨٩- كتاب العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار إحياء التراث العربي.

٩٠- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٩١- الكشف والبيان (تفسير الثعلبي): لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

٩٢- لباب التأويل في معاني التنزيل المشهور بتفسير الخازن: للإمام علاء الدين بن محمد البغدادي، دار الفكر.

٩٣- لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، الطبعة الأولى دار صادر - بيروت.

٩٤- مباحث في إعجاز القرآن: للدكتور مصطفى مسلم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار المنارة - جدة.

٩٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ١٩٩٥م، المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت.

٩٦- مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تعليق: الدكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي - القاهرة.

٩٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، ١٤٠٧هـ، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي - القاهرة ، بيروت.

٩٧- مجموع فتاوى ابن تيمية: لأبي العباس أحمد عبد الحليم بن تيمية الحارثي، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ومساعدة ابنه محمد، مكتبة المعارف - الرباط - المغرب.

٩٨- المختص في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية.

٩٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية - لبنان.

١٠٠- مختصر المنتهى: لعثمان بن عمر بن أبي بكر الأسنائي المالكي المعروف بابن الحاجب، وبهامشه شرحه للشريف علي بن محمد الجرجاني، ١٣٩٣هـ، مكتبة الكليات الأزهرية.

١٠١- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، المعروف بابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.

١٠٢- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق يوسف بديوي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، دار الكلم الطيب - بيروت.

١٠٣- المزهري في علوم اللغة وأنواعها: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠٤- المستدرك على الصحيحين: لمحمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠٥- المستصفى في علم الأصول: لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل: لأحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة - مصر.

١٠٧- المصنف في الأحاديث والآثار: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، مكتبة الرشد - الرياض.

١٠٨- المصنف: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي - بيروت.

١٠٩- معالم التنزيل: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة - بيروت.

- ١١٠- معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل شليبي، دار عالم الكتب.
- ١١١- معاني القرآن: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف بنجاتي، محمد علي النجار - دار السرور.
- ١١٢- معترك الأقران في إعجاز القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: علي محمد البحايي، دار الحرم للتراث، دار الفكر العربي.
- ١١٣- معجم أسماء الأشياء: لأحمد بن مصطفى الدمشقي، دار الفضيلة - القاهرة.
- ١١٤- معجم البلاغة العربية: للدكتور بدوي طبانة، الطبعة الرابعة، دار المنارة - جدة، دار ابن حزم - بيروت.
- ١١٥- المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ، مكتبة الزهراء - الموصل.
- ١١٦- معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجليل - بيروت.
- ١١٧- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ١١٨- المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب، تحقيق: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة - لبنان.

١١٩- مناهل العرفان في علوم القرآن: لمحمد عبد العظيم الزرقاني، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، دار الفكر - لبنان.

١٢٠- موطأ الإمام مالك: للإمام مالك بن أنس أبو عبد الله الأصمعي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - مصر.

١٢١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، المكتبة التجارية - مكة، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

١٢٢- النكت في إعجاز القرآن: لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الرابعة، دار المعارف - القاهرة.

١٢٣- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق: الدكتور أحمد حجازي السقا، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع - القاهرة.

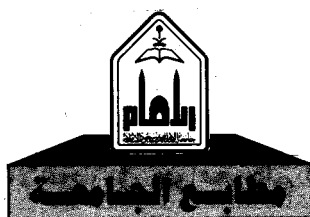
١٢٤- النهاية في غريب الحديث والأثر: لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ١٣٩٩هـ، المكتبة العلمية - بيروت.

١٢٥- هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، ١٣٧٩هـ، دار المعرفة - بيروت.

١٢٦- الوسطية في ضوء القرآن الكريم: للدكتور ناصر العمر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار الوطن - الرياض.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم عميد البحث العلمي
٧	المقدمة
١١	التمهيد
١٣	المبحث الأول: معجزات الأنبياء والقرآن
١٧	المبحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن
٢٥	الفصل الأول: جوامع كلم القرآن وصلتها بالإعجاز اللغوي
٢٧	مدخل
٢٩	المبحث الأول: تعريف الكلمة الجامعة
٣٣	المبحث الثاني: أقسام الكلمة الجامعة في القرآن
٣٧	المبحث الثالث: إعجاز القرآن اللغوي وجوامع الكلم
٥٣	الفصل الثاني: شواهد الإعجاز في جوامع كلم القرآن
٥٥	مدخل
٥٧	المبحث الأول: شواهد الإعجاز في السورة الجامعة
٧٧	المبحث الثاني: شواهد الإعجاز في الآية الجامعة
٩٩	المبحث الثالث: شواهد الإعجاز في الجملة الجامعة
١١٣	المبحث الرابع: شواهد الإعجاز في اللفظ الجامع
١١٥	شواهد الإعجاز في الأسماء الجامعة
١٢٣	شواهد الإعجاز في اللفظ المشترك
١٣٩	شواهد الإعجاز في اللفظ المستعمل في حقيقته وبجازه
١٤٥	شواهد الإعجاز في اللفظ الذي ترادفت في بيانه أقوال المفسرين
١٥٣	الخاتمة
١٥٥	فهرس المصادر والمراجع
١٧١	فهرس الموضوعات



لئن كان الحديث عن القرآن وعلومه كثيراً، ومتنوعاً، ومشوقاً؛ فإن الحديث عن إعجاز القرآن هو أروع وأمتع؛ لأنه يبرهن على أجل أوصاف القرآن وأشرفها؛ وهو أنه من عند الله، وأنه حق لا ريب فيه، كما قال تعالى: (لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ولذا عدَّ هذا العلم من أعظم علوم الكتاب العزيز وأسماها.

والإعجاز القرآني عند الإطلاق يكاد يكون محصوراً في واحد من أهم أقسامه، وهو الإعجاز اللغوي؛ ولذا لم تخرج مصنفات المتقدمين في موضوعها عنه.

والكتاب الذي بين يديك يتناول وجهاً من أعظم وجوه هذا الإعجاز؛ انطلاقاً من قوله - صلى الله عليه وسلم - : (بَعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)، وأن المراد به ابتداءً هو القرآن الذي اشتمل على أنواع من جوامع الكلم، في سورة، وآياته، وجمله وألفاظه، فقد اشتمل على جملة من السور القصيرة الجامعة، وعلى كثير من الآيات والجميل الجامعة، الشاهدة بهذا الإعجاز .

ومن أعظم دلائل جوامع كلم القرآن اشتماله على ألفاظ جامعة، كالأسماء الشرعية الجامعة التي تعدّ من مبتكرات القرآن، وكاستعماله لكثير من الألفاظ المشتركة في معانيها المختلفة، دون تعارض، وأستعماله أيضاً للفظ الواحد في حقيقته ومجازه في آن واحد. وكذلك اللفظ الذي ترادفت في تقريب معناه أقوال المفسرين .

المؤلف